السكينة

مجموعة قصصية

السكينة

مجموعة قصصية

محمد المنصور الشقحاء

محمد المنصور الشقحاء
السكينة
نصوص

الطبعة الأولى: فبراير 2020م - جمادى الثانية 1441هـ

رقم الإيداع: 8280\1441
ردمك: 978-603-91436-3-5

النادي الأدبي بالرياض
6710 شارع عبدالله الهمذاني حي الملز
الرياض - المملكة العربية السعودية
الموقع الإلكتروني: www.adbiruh.com
تويتر: AdbiRuh

دار ميلاد للنشر والتوزيع
6565 طريق الأمير محمد بن سعد بن عبد العزيز
الرياض - المملكة العربية السعودية
الموقع الإلكتروني: www.DarMelad.com
تويتر: Dar_Melad

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدى النادي الأدبي بالرياض، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي من النادي

الفهرس

مواطن 9
رحيل 17
يتم 21
أوراق 27
المِثلُ 37
الورقاء 47
الجلوَةُ 57
الملكوت 61
السكِينةُ 63
الغيبُ 67
الرهبةُ 71
العطش 75
سر العين 81
المتأنقة 91
الخلود 97
فاطمة 101
الرقص في الوقت الضائع 105
سفرُ الزهور الصفراء 121
الركض عبر أزقة الزمن 129
سبات عميق 149

العنقاء 167
الهنـــديــة..... 183
المـوت 193
أوراق من يوميات امرأة عاملة 203
حكاية أسطورة 209

بَكت عَينُك اليُسرى فَلما زجرتها
عَنِ الجَهل بعد الحِلمِ أسبَلتَا مَعا

الصمة القشيري

مواطن

لم أتوقع هذا السؤال وأنا أقف أمام الموظف أشكو ارتفاع قيمة استهلاك الماء؛ التي تجاوزت الخيال " هل أنت مواطن " ثوبي الأبيض وطاقيتي المخرمة وغترتي البيضاء ولهجتي التي فيها بقايا مدينة الطائف؛ التي هجرتها في منتصف العقد السادس من العمر لم تشفع لي عند الموظف الذي " طالب بالسداد " ثم تقديم الشكوى.

شعرت فجأة بحاجة مؤلمة ليد تسندني، فانسحبت بصمت وعند الباب الخارجي لمكتب شركة المياه أنقذني الرصيف، جلست على طرفه المترب أتأمل الشارع والسيارات العابرة وظل يلاحق أجساد مارة من عوالم أخرى، البعض يحدق في والبعض يلوح بكفه.

لماذا " أنا " كلمة واحدة دفعتني إلى التفكير في اختيار نفسي؛ وان كنت ألاحق أفكار تنهش ما تبقى من العمر، جعلتني

فريسة سهلة للمرض الذي هربت منه في العقود الخمسة الماضية من حياتي؛ التي كيفتها حسب الحلم الذي أعيشه بعبث وعدم مبالاة عبر أني موجود.

عبر أسرار أنا أخلقها، وأمنحها الحياة لتكون حكاية أسردها على الأصدقاء في المقهى، مع دخان الشيشة وعلبة السفن آب وأكواب الشاي وهدوء الحوار وصخبه، وحالة الصمت الذي يفرضه علي طيف " نجوى " المتراقص بين مربعات فناء المقهى وهو يبخل علي بسبب رحيلها المفاجئ؛ وقد سمحت لي بعد أن عرفت أن إحدى هواياتي التصوير الفوتوغرافي بالتقاط صورة لها ذات ظهيرة.

تذكرت أني تركت هاتفي النقال عند موظف الحسابات؛ الذي أخذه مني حتى يتأكد من صحة اعتراضي، ويعرف متى وصلتني رسالة شركة المياه وقارن المبلغ المبالغ فيه؛ برسائل سابقة كانت خمسة عشر ريالاً وقفزت إلى مئة وعشرين واليوم

ألف وسبعمئة ريال لشهر واحد، وأنا أنهض جاء صوته الذي أعرف " السلام عليكم " كان أحمد رفيق المقهى.

رافقني إلى الشباك الذي توقعت أني نسيت هاتفي عند الموظف الذي يجلس خلفه، موظف يرد العبارات كما ببغاء منزلية تردد سباب زوجين أنهكهم الهدوء المحيط بهم؛ وخلو الدار من الأبناء وعاملة منزلية فضلت إنهاء مهامها، إذا الجميع أمام شاشة التلفزيون يلاحقون أحداث مسلسل يتابعونه.

وأنا أدخل المفتاح في قفل باب المنزل؛ لم أجد سيارتي في موقفها المعتاد؛ وقفت في فتحت الباب قلقا ليرن جرس الهاتف، كانت زوجتي تقول: إنها تنتظرني بمركز الحي الطبي وتذكرت أني أوصلتها، وقمت بمراجعة مكتب شركة المياه ومن هناك أوصلني أحمد للمنزل بعدما اشترك في الحوار مع الموظف واستعاد هاتفي.

المسافر

وأنا أبحث عن مقعدي، ابتسمت المضيفة مشيرة إلى الممر الذي يوصلني مقعدي، وجدتها تجلس في الكرسي المحاذي للنافذة. جلست على كرسي الممر وقمت بربط الحزام وسحبت صحيفة تندس في جيب المقعد الذي أمامي.

وأبواب الطائرة تغلق والمنبه يحث الركاب على ربط الأحزمة جاء صوتها بعد رفع غطاء وجهها تعتذر عن جلوسها في مكاني وعندما جاءت القهوة وحبات التمر تناولت فنجان القهوة من المضيف وناولتها فتلامست أناملنا.

الرحلة متجهة إلى مطار القاهرة والوقت فصل الشتاء وقت عمل ومدارس، لما هبطت الطائرة وولجنا صالة المطار لمحت تلويحي بكفي لمن ينتظرني ابتسمت وتشاركنا عربة واحدة لحمل حقيبتينا وعامل واحد.

همت بأخذ حقيبتها ونحن نهم بتجاوز بوابة الصالة لباحة السيارات، عرفت أنها سوف تأخذ سيارة أجرة فأقنعتها بأن سائقي سوف يوصلها لعنوانها بعد إيصالي للفندق الذي أسكن وزودتها ببطاقة تحمل اسمي ورقم هاتفي.

انشغلت بمهام رحلتي ليأتي اتصالها في اليوم الثاني، كانت مع إحدى صديقاتها بمطعم الفندق لمشاركتها العشاء، في العاشرة ليلا دخلت المطعم الذي في أحد زواياه تجلس سيدة تعزف مقاطع موسيقية على آلة الكمان.

العتمة والضوء الخافت حجبا الرؤية ليرن جرس الهاتف، كانت هي لمحتني لتصف لي مكانها ورقم الطاولة لأجد سيدة أخرى غير رفيقة الرحلة المكللة بالسواد والصمت، ولما حدقت في رفيقتها همست وبدون وعي: هند.

تذكرتها زميلة الجامعة وشريكتي في الأبحاث، ثم تقارب لم نحدد دوافعه وقبل انتهاء العام الرابع اختفت، وكأن الأرض ابتلعتها أنا تخرجت وعدت للرياض وانشغلت بأعمالي

التجارية التي ورثتها عن والدي الذي ينتمي لأسرة لها مكان مميز في التجارة ومقاولات المباني.

رفيقة الطائرة احترمت الصمت الذي تلبسني، ولم تطرح الأسئلة الباعثة لزمن تجاوزته منذ ثلاثين عاما ليرن هاتفها النقال، كان السائق الذي استأجرته لتنقلها وصديقتها، في فناء الفندق تابعت الاثنتين بنظري حتى اختفتا.

لما عدت للفندق بعد جولة عمل سلمني موظف الاستقبال مغلفاً كانت هند تنتظر اتصالي جلست على أحد مقاعد آلة استقبال الفندق استعيد كلمات الرسالة القصيرة وأدقق في رقم الهاتف لمحت جهاز هاتف في إحدى زوايا الصالة وجاء صوتها تحدثت كثيرا.

انتهت مهمتي وبقي على عودتي للرياض أربع وعشرين ساعة، دعوتها لتناول الغداء جاءت " هند " بشعرها القصير وتنورتها الزيتية ووجهها الخالي من الأصباغ وعطرها الذي اعتدته،

تشابكت أصابعنا ونحن نسير على قدمينا كانت تأخذني للمطعم الذي نهرب إليه من الجميع.

في الطائرة أخرجت من حقيبة يدي مظروفا، أصرت ألا أفتحه حتى أركب الطائرة وإذا ارتفعت في عنان السماء وسمح الطيار بفك أحزمة المقاعد، والاطلاع على محتوياته كانت صورة لها مع شاب يلبس روب الجامعة وكتبت على ظهرها ابنك عادل محمد إبراهيم.

1439 – 3 – 19

رحيل

المكان الدور الأرضي من منزل يتكون من دورين في حي الشرقية بالطائف، كل دور شقة مستقلة الدور الأرضي تسكنه أمي مع وجودي المتقطع؛ وتسكن الدور الأول أختي المتزوجة لتتمكن من رعايتها.

الزمن بعد مغرب اليوم الرابع على وفاة والدتي (خالتي شقيقة أمي / ابنتها المتحجبة / أختي / أنا) في صالة الجلوس، نتبادل الحديث والعاملة الأفريقية تتحرك لخدمتنا متنقلة بين المطبخ والصالة.

مع ارتفاع أذان العشاء اتجهت إلى غرفتي مختليا (لا أعرف بالتحديد ما الذي أريد) وجلست على طرف الفراش أقلب أرقام ورسائل هاتفي النقال؛ لم أهتم بنداء إقامة الصلاة ولم أسع إلى اللحاق بالصلاة وصوت المؤذن يقرأ الفاتحة.

لما شعرت بالهدوء وتزايد العتمة في جنبات الغرفة حيث أموت ببطء، تخيلت أن أحدهم يفتح الباب وخيط من النور يتسلل عبر الفرجة التي شكلت مساحتها وساوسي، وقفت (باحثا عن المكان الذي يمكنني من الاختباء فيه) أترقب من يدفع الباب ويقتحم الغرفة فلم يحدث شيء.

غادرت الغرفة ولم أهتم بإغلاق الباب، وفي الصالة كانت خالتي تتأمل بوجوم شاشة التلفزيون المغلق؛ جلست بجوارها محتضنا كفها بكفي وتسللت رائحة دهن العود الذي تحرص على التعطر به إلى أنفي؛ جسدها الناحل أثار حزني فقمت وقبلت رأسها، ابتسمت وطلبت مني وهي تتمدد على أريكة والدتي تغطيتها بالبطانية، جلست على المقعد المقابل أراقبها.

دخلت المطبخ كانت ابنة خالتي تجلس على أحد كراسي طاولة الأكل وعلى كرسي آخر العاملة يتبادلن الحديث؛ لم تكن ترتدي شال الرأس وقد تمدد الشال وغطاء الوجه على الطاولة، حدقت في ثم انفرج وجهها عن ابتسامة وإذا بثلاثتنا

نضحك بصوت مسموع وجلست على كرسي ملاصق لكرسيها.

تجاوزنا لحظة الضحك (لكنها الأحلام كانت تنسج خيط) وتبادلنا الحديث عرفت أنها وأمها في رحلة الطيران المقررة العاشرة صباحا سوف تعود ووالدتها للرياض، واختفت العاملة بعد تلبية طلبي لقنينة ماء من البرادة، رن جرس هاتفي كان أحدهم يؤكد لقاء الواحدة بعد الظهر في جدة.

وقفت لمغادرة المطبخ شعرت بشيء يطلب مني اللحاق بها، مع ارتفاع أذان الفجر تركتها نائمة في الفراش مغادرا الدار، وأنا على وشك إنهاء طريق الهدى جاء صوت أختي تسأل عني.

1439 – 5 – 25

يتم

يقول بورخيس: (أحلام ككنز مدفون).

تخلت عني أسرة والدي الذي توفي في حادث سيارة وهو في مهمة حكومية خارج مدينة الطائف فعشت مع والدتي وزوجها. وشعرت باليتم وأنا أكتشف عناية والدتي وزوجها بإخوتي فتعثرت في دراستي وتوفقت في الحصول على عمل حكومي في إدارة بأقصى مدن الشمال.

وأنا في الثانية من المرحلة الدراسية الثانوية استذكر دروسي في غرفتي، جاءت هاربة من عنف زوجها تنتظر والدها الذي كان يجاورنا بالشارع حتى انتقل بسبب الوظيفية إلى مدينة جدة، الدار ساكنة والساعة منتصف الليل، ووجدت عندي الحنان الذي احتاجته.

جاء والدها ورحلت معه بعد رفضها لكل مساعي الصلح والتنازلات التي تعهد بها زوجها، ونظرات أمي تحدجني كأنها تخبرني بأمر حدث عكر سكون حياتها.

غادرت المنزل لأشارك في مقابلة وظيفة نشرت في جريدة المدينة التي اعتدت اقتناءها.

تذكرت صراخ أحد أفراد ملحمة الكاليفالا (لا لا تتكلم هراءً فأنا أعرف صيد السمك)، وعرفت معها أن مدينة أقصى الشمال رفضت وجودي فعدت لوالدتي التي ترملت للمرة الثانية وللبيت القديم واحتضنتني جدران غرفتي تشكي تصرفات من سكن بها بعد رحيلي.

وفي الرابعة عصرا ووالدتي عند ابنتها التي تعاني من ألم المخاض في إحدى غرف مستشفى النساء والولادة رن جرس الباب وكانت إحدى قريباتي التي كلف زوجها المراقب المالي والقادم من الرياض بقفل صناديق الإدارات الحكومية

بالطائف لغلق الصرف انتظارا لصدور ميزانية العام المالي الجديد.

قلت بصوت مرتبك: لا يوجد أحد بالمنزل

قالت: لقد ترجلت من السيارة. ولما اقتربت من الباب تحركت سيارة زوجها، وسوف يعود مع أذان المغرب

أدخلتها غرفة الجلوس وجلست على أحد المقاعد ملتفة بعباءتها السوداء تركتها ودخلت المطبخ أبحث عن شيء أقدمه لها فأشعلت الموقد لصنع الشاي وإذا بها تقف بجانبي في المطبخ وتذكرت حديث الألم في نبي جبران خليل جبران (والكأس التي يحملها، وإن أحرقت شفتيك، فإنها قد صنعت من طين مزجه صانع الفخار بدموعه المقدسة).

في مدعوة سيمون دو بوفوار (توقف فجأة عن الكلام. لم يعد بوسعه التظاهر بأنه لم يلحظ أن فرنسواز لا تستمع له. فهي استلقت على بطنها وراحت تحدق في المصباح الكهربائي الذي بدأ نوره يضعف) وأنا أصل لهذا الحد جاءت والدتي لتطلب

مني إيصال المرأة التي زارتنا للسلام عليها واستعادة بعض لحظات أيام تبقت آثارها في أعماق نفس مطمئنة وبصفتها صديقة وجارة قديمة لنا.

جلست في المقعد الخلفي ولما تحركت لمحت وجهها الذي كشفت عنه الغطاء الأسود فعرفتها أم البنات الثلاث والتي نناديها باسم أم سيف لا أعرف طريق منزلها الجديد، فكان أن تبادلنا الحديث لترشدني طلبت مني التوقف أمام محل تموينات غذائية في شارع عكاظ لشراء بعض مطالب منزلها ولما عادت، جلست في المقعد الأمامي وطلبت مني الوقوف أمام عمارة سكنية عرفت أن ابنتها الكبرى تسكن إحدى شققها في المصعد شممت عطرها.

انتظرتها في ممر الدور الذي دخلت إحدى أبوابه لتعود وتطلب مني الدخول كانت ابنتها غائبة والسكون يعم الشقة، تذكرت شارعنا القديم ومنزلها الذي كان أكبر منازل الحي وبوابته المشرعة بسبب أعمال زوجها التجارية واستعانته بي وأنا طالب

في المرحلة المتوسطة في تدوين حساباته بسبب أميته وجلوسها معنا ثم لحاقها بي وأنا أغادر طالبة نقل تحياتها لوالدتي.

تعرضت لوعكة صحية وأنا في العمل، معها تم إدخالي المستشفى لمتابعة مرضي وفي اليوم الخامس عشر، أخبرني الطبيب الذي يتابع حالتي أنه تم قبولي في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض لمواصلة العلاج، في اليوم الثالث من الفحوصات وبعد اكتمال السجل، أخذ الأخصائي الاجتماعي يطرح أسئلته التي مع شعوري أنها خارج حالتي الصحية كنت أجيب عليها وتوافد أشخاص يحملون لقبي للاطمئنان علي ورجل عجوز بينهم يقول: (الحمد لله أخيرا عثرنا عليك) كانوا أسرة والدي التي لا أعرف عنها شيئا.

وأنا في غفوة إثر العلاج تنبهت على صوت نسائي ينادي باسمي وليقتحم الأخصائي الاجتماعي الغرفة ليقف بجوار أنثى ملتفة بالسواد وصوته يقترب من أذني (أمي تراجع المستشفى وتبي تتطمئن عليك)

قالت: قلقنا عليك وملفك مسؤول عنه ولدك سيف الذي سمح لي بزيارتك.

رن هاتف سيف فخرج من الغرفة عندها كشفت الغطاء عن وجهها لتحدق في مبتسمة أخذت أتأملها الصور غائبة ولا أتذكر من أنا.

1439 – 8 – 7

أوراق

لما عدت للبيت وجدتها احتلت غرفتي؛ وفي غياب الجميع كنت أتمدد بجوارها في الفراش. غفونا في نوم عميق، لما صحوت كنت لوحدي في الفراش.

اتجهت للمطبخ فوجدتها على أحد مقاعد طاولة الطعام فتحت باب الثلاجة وأخذت قنينة ماء صغيرة وأنا أروي عطشي واقفا دخلت أمي وخلفها الخادمة تتبعهم أختي ذات السنوات الأربع.

قبلت رأس أمي وغادرت الدار وأنا أدير محرك السيارة لمحت عقارب الساعة كانت العاشرة صباحا توجهت إلى مطعم يقدم الوجبات الجاهزة فأخذت ما يسد جوعي وعصير برتقال طازج وأخذت طريقي إلى مقهى اعتدت لقاء الأصدقاء فيه للسمر وشرب الشاي وتدخين الجراك.

أحضر النادل براد الشاي ورأس الجراك لفت نظري التلفزيون المغلق تلفت حولي أبحث عن عامل المقهى لفتحه فلم أجده ولما اتجهت للجهاز رن جرس هاتفي النقال عدت للرد على المتصل كان رقم مجهول وجاء صوتها.

قالت: هو بيت أخي

قلت: اعتدت هذه الجملة وأنت تصرخين بها في وجه أمي

قالت: سوف أطلب منه طردك

قلت: أنتظرك الليلة في غرفة السطح

وأغلقت الهاتف تتابع اتصالها كنت أتابع شاشة الجهاز مفكرا ليتوقف لحظات ثم جاءت رسالتها (حقا أنت مريض) لم أرد فعاود الجهاز رنينه ليخمد وليرن من جديد برقم آخر كانت هي تركتها تسترسل في حديثها ولما انتهت.

قلت: لن تكدري نومي ولكن سوف أعيدك للحياة

قالت: مريض

قلت: عشت في قذارتك بصمت بحثا عن غرفة في عقارك فوجدتها في جسدك!

انهالت الذاكرة كما شريط سينمائي وجد والدي ميتا في مكتبه بمؤسسته التجارية إثر نوبة قلبية وأنا في العاشرة من العمر وتولى عاصم إدارة المؤسسة كوصي دعمه موافقة والدتي على أن يكون زوجا لها.

وليت رعاية خاصة من أمي أنا وشقيقتي التي تكبرني بعامين ولما حصلت على الثانوية جاء قبولي في التخصص الذي أرغب بجامعة الملك سعود بالرياض معه تركت بيت الأسرة بالطائف مع بقاء غرفتي بكل محتوياتها.

شقيقتي لحقت بي بعد زواجها من أحد أقاربنا تقيم أسرته بالرياض؛ هذا العام أكملت الفصل الثالث من مساري الجامعي وعدت للبيت لأجد غرفتي محتلة وأن علي النوم في غرفة شقيقتي المتزوجة لم يتغير الحال كثيرا وقطع علي تأملي

أحد عمال المقهى، أن موعد صلاة الظهر أزف والمقهى في أوقات الصلاة يغلق أبوابه طالبا حساب طلباتي.

عند باب المقهى كان أحد زملاء الدراسة يترجل من سيارته؛ تبادلنا السلام وطرائف بعض السنوات التي جمعتنا في فصل واحد عرفت أنه توقف عند المرحلة الثانوية وبدأ مشروعه الخاص، بدعم من والده وأنه على موعد مع البنك لأخذ ضمان بنكي للدخول في مناقصة حكومية وأصر على أن أرافقه.

في البنك كانت الصدمة؛ وقد عرف أحد موظفي البنك الذي وقفنا أمامه اسمي كتعريف من صديقي؛ وأسئلة الموظف تنهال علي عن والدي وأسرتي وعرفت أن لوالدي خزانة بالبنك يحفظ فيها بعض أوراقه وأن لي ولشقيقتي حساب توفير مجمد؛ وعلى إحضار "برنت" من الأحوال المدنية باسم والدي.

ومن مشاركة صديقي بالنقاش أبدى استعداده الحصول على معلومات عن والدي في سجلات الغرفة التجارية؛ وفي

الأحوال المدنية طلب الموظف صك حصر الورثة وصك الوصاية وشهادة وفاة والدي ولما ناقشت شقيقتي المقيمة بالرياض عرفت أن لديها صورة من الأوراق بملفها الدراسي الذي سحبته لتواصل دراستها بالرياض ولم يتحقق حلمها.

كانت صور الأوراق الثلاث مصدقة من شؤون الطلاب بإدارة التعليم قبلها بعد تردد موظف البنك تقدير لمعرفة زميل الدراسة فتحرك حساب التوفير المجمد الذي باسمي وكذلك الحساب الذي باسم شقيقتي وفي خزينة البنك عثرت على صك المنزل الذي نقيم فيه وصك لأرض زراعية بمنطقة القيم محاذية لطريق الطائف السيل.

اتصلت هاتفيا بشقيقتي وأخبرتها بما وجدت وأمليتها رقم حسابها البنكي وطلبت من الموظف إخبارها بطريقة تحريكه من أحد فروع البنك بالرياض.

2018 – 12 – 28

الكتاب

تعرضت والدتي لحالة صحية لم يستطع الطبيب وصف العلاج المناسب لها، فقرر وضعها تحت المراقبة أربعاً وعشرين ساعة، لم تكتمل الفحوصات فبقيت في السرير الأبيض لليوم الثالث فرافقتها عاملة المنزل.

وأنا أتمدد في فراشي بكامل ملابسي بعد يوم مرهق في العمل وانتظار طويل في المستشفى لمقابلة الطبيب المشرف على حالة أمي الذي فضل تأجيل خروجها يوماً آخر.

تنبهت على رنين جرس الباب الخارجي الظلام يحيط بي فغادرت الفراش فزعا وأشعلت النور مع مواصلة رين جرس الباب وكانت جارتنا وصديقة أمي السمراء مدت يدها بحافظة طعام.

قالت: شعرت أنك اليوم مرهق

: .....

قالت: هذا شيء يسير

طال الوقوف وتذكرت أن علي التراجع للخلف فدخلت اتجهت إلى المطبخ استقرت الحافظة على طاولة الأكل وأخرجت من دولاب الصحون صحنين وملعقتين وجلست على أحد المقاعد كانت تقف تتابع حركتي دخلت واتجهت إلى دولاب الصحون فأخرجت صحناً ثالثاً وجلست على المقعد المجاور لمقعدي وفتحت غطاء الحافظة غرفت منها في الصحن الذي أمامي.

لما توقفت قمت بالغرف من الحافظة في الصحن الثاني والتقت نظراتنا أفتر وجهها عن ابتسامة صغيرة معها تخلصت من العباءة التي تلف جسدها والشال الذي التف على رأسها وبرز ثوبها المنزلي الفضفاض القصير.

أشعلت النار لغلي الماء وأخرجت كوبين ذات عروة من دولاب أكواب وسحبت درج أعرف أن داخله أكياس الشاي

وقوالب السكر، ونحن نتبادل الحديث أثناء شرب الشاي ونحن جلوس على مقاعد طاولة الطعام لاحظت أننا جلسنا على مقعدين متباعدين وعرفت أنها من خلال مهام عملها تزويد فروع الإدارة التي تعمل بها بالكتب الثقافية العلمية والأدبية التي تساعد على تطوير مهارات العاملين وتنمي ثقافتهم العامة.

تطرقت إلى هواية القراءة والتخصصات التي أميل إليها وأن لدي مكتبة صغيرة وذكرت بعض الأسماء من المؤلفين والعناوين التي تنام بسكون فوق بعض في رفوف دولاب صغير

قالت: تنام بسكون فوق بعض كيف؟!!

نهضت من مقعدي ووقفت أمامها وأنا أمد كفي التي سحبتها بسرعة وغادرت المطبخ لحقت بي ولما دخلت غرفتي وقفت أمام الدولاب أنتظر تأخرت ولكنها وهي تقلب صفحات

أحد الكتب انقطع التيار الكهربائي وعم الظلام المكان وخيم الصمت شيء ما دفعني إلى الاقتراب منها.

تذكرت أحداث الطفولة، فبرزت صورة جارنا الذي كان ينتظر النزول من حفلة المدرسة فيسألني عن واجباتي المدرسية وقبل يوم اختفائه طوق وجهي الصغير بكفيه وزرع قبلة طويلة على فمي وعض شفتي السفلى. وتذكرت جارتنا السمراء التي تختلق الأعذار إذا زارتنا لتصارعني أمام أمي ونحن نتابع برنامج المصارعة الحرة في التلفزيون ولما تطرحني أرضا تصر على استسلامي فتقوم أمي بالتصفيق. كل هذه الخواطر انثالت وأنا اجلس على أحد مقاعد صالة الجلوس منتظرا عودة التيار الكهربائي ومحاولا تذكر المشهد الذي جرى بعد انطفاء النور والظلام الدامس.

عاد التيار الكهربائي تلفت حولي شعرت بالخوف فبقيت في مكاني أنتظر شيئاً لا أعرفه يأتي من اتجاه غرفتي شعرت بالعطش اتجهت للبرادة القابعة بالمطبخ أرويت عطشي فوق

طاولة الأكل كوب شاهي واحد ممتلئ اختفى الثاني وحافظة الأكل. اتجهت إلى غرفتي وجدت أحد الكتب ينام على المخدة في سريري.

2019 – 1 – 31

المِثلُ

بعد أكثر من عشر سنوات ها أنا في الطريق إلى الطائف مرافقا لجثمان والدي الساكن في تابوت من الخشب الجيد في كابينة العفش بالطائرة، جاء أمريكا بحثا عن العلاج فقبضه ملك الموت.

في الطائف وبعد انتهاء أيام العزاء تصاعد حديث إخوتي حول حصر الورثة وإحصاء رصيد والدي النقدي وأملاكه فتم توكيل أحد المحامين بفحص ملفات مكتب والدي التجاري وتتبع سجلاته التجارية الأربعة وحساباته البنكية.

في الشهر السادس نجح مكتب المحامي في جمع الوثائق الرئيسية، قررت العودة إلى أمريكا حيث مكتبي التجاري الذي أقمته بالتعاون مع أحد زملاء مرحلة البكالوريوس، الذي شجعني لمواصلة الدراسة لنيل درجة الماجستير.

يساعد المكتب التجاري الطلبة المغتربين الملتحقين بالجامعات على إنهاء إجراء القبول واختيار التخصص وتوفير السكن ومراجع البحث العلمي، تطور المكتب من مكتب واحد في المدينة التي أدرس في إحدى جامعاتها إلى مكاتب في ثلاث مدن فيها كثافة للطلاب السعوديين ودول الخليج العربية.

توقفت عند الماجستير وتزوجت أخت شريكي الأمريكي وتملكت المنزل المناسب وجاء ابني وجاءت ابنتي وها أنا أهبط في أمريكا وسيارة الأجرة توصلني للحي الذي أسكن.

فتحت الباب، الهدوء والعتمة تحيطان بالمكان، غرفة الطفلين خالية، باب غرف النوم موارب دفعته بهدوء. كانت زوجتي نائمة بالفراش وبجوارها آخر دس وجهه تحت المخدة هزتني الرعشة وساعدني الهدوء وعتمة المكان على حبس الصدمة. عدت للدور الأرضي وتمددت على أحد كراسي صالة الجلوس ونمت.

تنبهت على الضياء الذي يعم المكان وأبواق السيارات العابرة الطرق، فُتح باب المدخل، كان شقيق زوجتي وشريكي، واساني في وفاة والدي. عاد ابني ذو السنوات العشر وابنتي ذات السنوات الست ومرافقتهم الحاضنة التي اعتدنا الاستعانة بها للبقاء معهم عند حضورنا المناسبات.

عدت للطائف أخبرني المحامي أن وجودي غير مرغوب فيه في منزل والدي، لم أسأل، وأطلعني على تركة والدي ونصيبي من الميراث، وبقي البيت الكبير الذي تسكنه زوجة والدي وإخوتي، فأخبرت المحامي بتنازلي عن نصيبي فيه لزوجة والدي وفاء لعلاقتي بوالدي.

زودت المحامي برقم حسابي البنكي ورقم هاتفي الجوال وفوضته ببيع نصيبي في الأملاك المشتملة على الأراضي والعقارات والأسهم كنت أسهل حل العوائق المعطلة لمواصلة انطلاق لم يحدد محطة التوقف خشية الموت.

وعن طريق مكتب الاستقبال في الفندق أقمت فيه لأكثر من ثلاثين يوما، طلبت أن تقطع لي تذكرة سفر بالطائرة بدون عودة.

في الرياض الواحة الساكنة في أعماق الصحراء والتي تنتمي لها أمي التي لا أعرف عنها شيئا وإن بقي فقط اسمها " حصة " وأنا أحاول العودة لنفسي من خلال ما تبعثر في داخلي. شريت فيلا جديدة من دورين في شمال الرياض، لم يكتمل تشطيبها بفناء صغير وست غرف ثلاث للنوم في الدور الأول وثلاث في الدور الأرضي للاستقبال مع كافة الخدمات. تعاقدت مع مكتب هندسي للديكور وتنسيق الأثاث، ليصلني عبر الهاتف صوت نسائي يسأل عن أفكاري لتجهيز الفيلا ومكانها ومساحتها والذائقة الشخصية التي تنطلق منها مطالبي.

مع فنجان القهوة في مطعم الفندق الذي أسكن فيه تواصل حديث منسقة الديكور، ليكون لقاء أخر ومرافقتها التي قلبت

ملفات مشاريع سابقة تم تنفيذها لننطلق في اليوم الخامس إلى الفيلا.

عندما زرت الفيلا متابعا لتنفيذ ما اتفقنا عليه، جاءت الثالثة، فارق السن بينهن غائب وهن مندمجات في العمل، يساعدهن في التنفيذ كادر عمل من الذكور. بعد عشرين يوماً اتضحت معالم الفكرة التي اختزنتها ذاكرتي وأنا أتجول في شوارع الطائف.

في اليوم العاشر لسكنى الفيلا دعوت فريق العمل للعشاء، فجاء الاتفاق على المكان في حديقة فندق في طريق المطار، ومع رنة كلمة المطار انبعث الساكن في أعماقي لطالب مغترب يترك تاريخه وذاكرته ليتشكل من خلال تاريخ مكان اندمج فيه وأعاده للوعي جثمان والده ولنقطة الصفر.

كانت الطائرات تعبر الفضاء بين وقت وآخر تقطع ضجيجنا وتردم جدران يشيدها المجهول، وفي منتصف الليل، ركبت

اثنتان سيارة واحدة، والثالثة غادرت في سيارتها، فأدرت محرك سيارتي.

بعد استرخاء واعتصام بالمنزل، استغرق عشرة أيام، خرجت بحثا عن الحياة وتجولت بسيارتي في الشوارع، الحفريات والتحويلات تصدمني بعبثيتها. دخلت فناء فندق اعترض طريقي، ترجلت المكان شبه خال لمحت يافطة تقول هنا المطعم.

رن الهاتف كانت مهندسة الديكور تسأل عن تأخر اتصالي لمعرفة رأيي في عملها أخبرتها أني أتناول العشاء بمطعم فندق لم أحرص على حفظ اسمه وإن انتصب مجسم طفاية سجائر على الطاولة التي أجلس على أحد مقاعدها يحمل شعار واسم الفندق. عرفت منها أنها كمغامرة تقدمت من خلال مكتبها لمناقصة حكومية تحتاج سيولة نقدية عالية قلت بدون تفكير: أنا شريك بنصف قيمة المشروع.

سافرت إلى أمريكا لتفقد ابني وابنتي بعد معرفة أنهم يقيمون عند جدتهم الأرملة وأنهم التحقوا بمدرسة داخلية تسمح لهم بالخروج نهاية الأسبوع لم أسأل عن أمهم التي تنتشر صورها في زوايا غرفة الاستقبال أخذت أطفالي في جولة ولما عدنا كان الجميع في انتظاري وعرفت أنها ماتت منذ ستة أشهر في حادث سيارة.

تحدث شريكي في مكتب خدمات الطلاب عن نشاط المكتب وأنه أغلق الفروع وبقي المكتب الرئيس لظروفه الصحية وقدم لي ملفاً يحمل التقرير المالي لعامين من الغياب أعدته له فتوقف عن الحديث واندمجنا في الحفل المصغر الذي أقامته الجدة بمناسبة حضوري.

عاد ولدي وابنتي لمدرستهم ورتبت أموري للعودة للرياض وناقشت الجدة وباقي الأسرة في أخذ أولادي فاحتجت الجدة وأبدى شريكي في المكتب التكفل بمصاريفهم والاستفادة من منزلي بعد تأجير غرفه للطلبة وبقاء الولد والبنت مع جدتهم.

فتحت حساباً بنكياً مستقلاً باسم الولد وحساباً بنكياً آخر باسم البنت بموجب شهادة الميلاد الأمريكية ووثائقهم المدرسية كمواطنين أمريكيين وأضفتهم كشركاء في مكتب الخدمات بنصف نصيبي في عقد التأسيس وجددت التوكيل لشريكي ومنحته كامل الصلاحيات كمدير تنفيذي.

رست المناقصة على المكتب الهندسي، فطلب منه ضمان بنكي، وصورة السجل التجاري وعضوية الغرفة التجارية الصناعية وشهادة تسديد الزكاة. فدفعت جزءاً من نسبتي كشريك من الباطن.

فاتحت شريكتي الجديدة بعد حضوري لمناسبة اجتماعية في منزل أحد إخوتها بالزواج. لم تجب وذات مساء جاء اتصالها أنها تنتظرني لتناول العشاء بمطعم في مجمع تجاري على الدائري الشمالي كان المطعم شبه خال وكانت تجلس على طاولة تكشف الجلوس وتمنحنا الحديث بدون تحفظ، عرفت أن طلاقها الرابع

جاء منذ عامين بسبب عقمها. وأنها الآن تزوجت المكتب وموظفيه متجاوزه همسات بعض أفراد أسرتها.

وتحدثت لها عن غربتي والسنوات التي قضيتها في أمريكا التي غادرتها لمرافقة جثمان والدي وأن لي طفلين ترعاهم جدتهم من زوجة قيل لي: إنها ماتت.

2019 – 7 – 8

الورقاء

أنا متمسك بالحياة إلى حد أني وضعتها في مأمن خارج الزمن، بعيدا عن المتداول ومن هنا وصلت إلى قناعة ليس من العدل أن أغضب فقد جاء تصرفها خارج عن إرادتها وبالتالي جاءت النتيجة أنها لم تفعل شيئا.

بعد عام عرفت أنها زوجته؛ حصلت على رقم هاتفها من إحدى موظفات الشركة التي أعمل بها أخبرتها مباشرة باسمي ومقر عملي، وأني بحاجة لرأيها في قضية اجتماعية.

فاجأتني بضحكها الصاخب عبر سماعة الهاتف وطلبت أن أعاود الاتصال بعد يومين؛ لأنها خارج المدينة لزيارة مريض في المستشفى التخصصي.

وفي المكان العام الذي حددته وجدتها تنتظر في مقهى صالة استقبال فندق الحياة لم تنهض من مقعدها، وإنما مدت كفها

مرحبة فجلست على الكرسي المقابل وجاء النادل يسأل عن طلبي.

أخبرتها أن أسرة زوجتي حاصرتني حتى أطلقها بعد وضعها ابني الأول منذ عامين وأخيرا عرفت أن مدير الشركة التي أعمل بها خالها وهو صاحب القرار.

: أي شركة

: شركة الزهرات الثلاث

: زوجي صالح

: هل هو زوجك

عرفت أنه البديل بعد أن كانت البدل وأن الشركة وأملاك عقارية آلت كإرث لها ولابنها ناصر ولابنتها نهى وأن صالحا كان الزوج البديل بصفته ذراع الزوج الراحل وفيه خلاصة سماته وسكرتيره الخاص لتكون الزوجة الثانية.

: وما دوري هنا

: منذ طلقتها غاب ابني الذي أسعى لمعرفة مصيره

: كنت في الحادية عشر من العمر جاء زوجي لزيارتنا؛ أهل زوجته المتوفاة للاطمئنان على ابنته التي ترعاها أمي. فكنت الزوجة البدل خلال أربع وعشرين ساعة، وأخذني طريق المجهول السائق الأسمر وزوجي بالمقعد المجاور وأنا وابنته ذات السنتين بالمقعد الخلفي، في سيارة فاخرة، في ذلك الوقت كانت السيارة الفاخرة الوحيدة التي دخلت بلدتنا المستقرة في الصحراء.

رن هاتفها ونهضت أخذت أتأملها بدون مبالاة ولم أهتم برفع كفي وهي تلوح بكفها مودعة. أكملت شرب فنجان القهوة وسحبت جريدة متمددة على الطاولة المجاورة أخذت أُقلب صفحاتها.

ليقطع خلوتي أحد العاملين بالفندق يسأل عن اسمي ويناولني مظروفاً صغيراً قال: إن أحدهم تركه عند موظف الاستقبال.

أسطر الرسالة تقول: (زوجتك حصلت على بعثة دراسية فتزوجت أحد أقاربها لتتمكن من السفر وابنك عند أمها)

تلفت حولي لم يكن هنا أحد والمكان معتم وصوت خافت يقول: هذه الخطوة الأولى استمر في السير.

لم أشعر بانتهاء عمل المطعم ولم يلفت نظري غياب الشمس وخلو المكان وإن كنت أحس بأنفاس وحركة حولي وشعرت أن هناك أصابع تلامس كفي وتأخذني إلى سيارتي التي تقف في باحة الفندق.

طلب مني العم صالح إدارة فرع الشركة الجديد في جدة الذي افتتح بعد تعاقد الشركة مع جهات حكومية ببناء مقرات لها وتجهيز أرض بيضاء دخلت الشركة كشريك مطور لتخطيطها كحي سكني تتوفر فيه خدمات البنية التحتية.

المهمة صعبة وقال قريني وأنا أجلس وحيدا بأحد منتزهات الثمامة أنفث دخان الشيشة وأقضم أطراف سندويش شاورما وتلفزيون المربع الذي أجلس فيه مغلق والقرين يقنعني أنها فرصة لتنشق عبير البحر.

في اليوم العاشر لمباشرة مهامي الجديدة وجدت على مكتبي مظروفاً مغلقاً كانت بداخله بطاقة منتزه بحري في شمال جدة ودعوة بخط قلم مداده أخضر (أنتظرك في التاسعة هذه الليلة لتناول العشاء في كابينة رقم عشرة).

نحن في حاجة إلى الآخرين لإكمال أنفسنا آفتنا الجميلة النسيان، دلني حارس البوابة على الاتجاه المؤدي إلى الكابينة ونصحني بترك سيارتي في مواقف الباحة الزرقاء وإن بعدت بعض الشيء عن الوجهة البحرية. الباب موارب ومع ذلك ضغطت زر الجرس كانت سيدة الرياض وطاولة تحيطها مقاعد أربعة وأخرى تجلس ووراءها تنتصب الشيشة، وقفت التقت كفانا.

: أختي زينب.

:الأستاذ إبراهيم

أمواج البحر تتكسر على حافة المنتزه وأشعة القمر تلاحق تموج سطح البحر مدت زينب لي الشيشة ترددت في أخذه ثم سحبته وسحبت نفسا عميقا فتصاعد الدخان.

: العشاء سمك جداوي

باب الكابينة يفتح ليدخل عمال مطعم المنتزه بالأكل وخلفهم آخر يحمل شيشة ثانية؛ في الحادية عشرة ليلا توقف حديثنا وعند باب الكابينة تركت الأختين تنتظران السائق وأخذت أتتبع اللوحات الإرشادية بحثا عن سيارتي.

وذات مساء وأنا مع بعض إداري فرع الشركة نتناول العشاء في مقهى ومطعم في شمال جدة، طلب مني قريني الاتصال بصاحبة الشركة لمعرفة قرارها في استمرار إدارتي للفرع؛ قالت:

كنت أفكر فيك. هنا قلت: شيء في داخلي دفعني للاتصال لسماع صوتها.

: القرين الذي يحرسني منذ ثلاثة أيام يقطع تفكيري بالحديث عنك

: والشيطان الذي يرافقني كحارس هو من اتصل بك حتى اسمع صوتك

: صالح يرقد في المستشفى وقد يسافر إلى ألمانيا لمزيد من الفحوص

: هل ترافقيه

: سوف يرافقه ابنه الأكبر وأحد موظفي العلاقات العامة

: .....

: عندما يسافر سوف أتصل بك

جاء اتصالها وجاء اللقاء تحدثت كثيرا عن صالح وتدخل أولاده في أعمال الشركة مع أن لديهم أعمالهم الخاصة وإصرار

ابنها على الدراسة الجامعية في أمريكا وطلاق ابنة زوجها السابق التي تعتبرها ابنتها بعد ستة أشهر من حفل الزواج وتدني درجات ابنتها الدراسية بعد سفر شقيقها للدراسة.

لم نشعر بالوقت ولم أتحرج من تخلل أصابع كفي أصابع كفها ران الصمت علينا أوصلتها لمنزلها وانتظرت حتى دخلت ولما هممت بالتحرك جاء اتصالها تدعوني للدخول.

وفي منتصف الوقت المحدد لتسليم المشاريع الثلاثة التي أشرف عليها جاء خبر وفاة العم صالح مما أعادني للرياض للمواساة وحتى لا يؤثر الفراغ الإداري على الشركة وإن وجدت الابن الأكبر لصالح يجلس على مقعد والده وحوله بعض الموظفين لمتابعة سير العمل.

لم يكتف الابن بتوجيه الموظفين كقائد جديد فقرر اللقاء بمحامي الشركة وبالمحاسب القانوني وطالبهم باعتماده كمدير

حتى تتم حصر الأصول ومعرفة الحسابات البنكية وأوضاع موظفي الشركة وعمالها ومعداتها.

الأملاك العقارية والأرضية مع محدوديتها حددت وثائقها التي لدى محامي الشركة أنها إرث تم توزيعه بين الزوجة والولد والبنتين ويديرها مكتب المحامي بموجب توكيل شرعي.

أما الشركة فقد بقيت باسم صاحبها المتوفى وإدارة صالح الذي عين كوصي على البنتين والولد كقصر ثم تزوج الأرملة وأنجب منها ولدين قبل وفاته ولاعتراض الابن على حقيقة الوضع جاء لقاء الورقاء بالمحاسب القانوني الذي أحضر نسخة من سجلات الشركة وبرفقته المحامي الشرعي في منزل الأسرة لتحديد الإجراء القانوني لتصحيح أوضاع الشركة حتى لا تتعطل عقودها ولتستدعيني الورقاء لأكون ممثل الشركة نيابة عنها فيما يتخذ.

لم تقف الورقاء أمام أي مسعى يفك الاشتباك خاصة أن لها ولدين من صالح فكان أن تولت الإدارة وأنا تزوجت الابنة

المطلقة التي قبلت احتضان ابني لحقت نهى بشقيقها للدراسة في أمريكا.

2019 – 9 – 4

الجلوَةُ

ولد في مدينة الرياض وأكمل تعليمة الجامعي في مدينة مكة المكرمة وعمل في وظيفة حكومية في مدينة أبها، ومدينة الدمام والمدينة المنورة. وتقاعد في مدينة الرياض بموجب السن، ومارس التجارة كبائع سيارات مستعملة وجديدة.

السفر أثناء العمل حفز فيه اكتشاف العالم من خلال الحياة الاجتماعية فواصل ترحله ثلاثة أشهر كل عام حتى أقعده المرض ولما مات دفن جثمانه في مقبرة جديدة في شمال الرياض. تقبل ولداه العزاء في المقبرة وركب كل منهما سيارته واتجه لمنزله وتقبلت زوجته وابنتها الأرملة التي فقدت زوجها وجنينها في حادث سير قبل خمس سنوات المعزيات بالمنزل.

في اليوم الثالث وبعد انتشار خبر وفاته أقيم العزاء في ثلاث مدن أبها والدمام والمدينة المنورة كانت في كل بيت أرملة وأولاد وبنات.

أرملة الرياض وابنتها الأستاذة الجامعية جاء إرثهم المنزل الذي تقيمان فيه، وجزءاً من بيع معرض السيارات حيث لا يرغب أي واحد من الولدين في إدارته بصفتهم يعملون في إدارة حكومية.

الأستاذة الجامعية وهي في مكتبها بالكلية التي تنتسب لها استقبلت اثنتين من زميلاتها ومعهم ثالثة لا تعرفها حدقت الثالثة في لوحة الاسم المنتصبة على المكتب وتقدمت نحوها

: هل أنت هذه وهي تشير للوحة

: نعم هل تعرفيني

: الآن عرفتك أنت أختي أنا عضو هيئة تدريس بجامعة الدمام وقبلت في درجة الدكتوراه هنا.

كانت الصدمة أكبر وهي تتابع حديث زميلاتها وجدران الغرفة تغيب معالمها ليمتد الفضاء بألوان قوس قزح فأختها

منذ بداية العام الدراسي أي منذ شهر تشاركها المكان وقد تكونان التقتا في الممرات ولم تشعرا بقرابة الدم.

وهي تقص الحالة لأمها على طاولة الغداء جاء رد فعلها هادئاً وبسيطاً وهي تمسح أطراف أصابعها بمنديل ورقي.

: هل عرف أخوك

: سأخبره بعد معرفة رأيك أتصرف

وهي في طريقها لمكتب خدمات الطلاب حيث توجد فيه ملخصات أبحاث القسم الذي تعمل به قال السائق الأسيوي: إنه يرغب في السفر تذكرت أن له ثلاث سنوات وأنه أصبح جزءاً من البيت. لما عادت طلبت من السائق حمل الملفات التي اشترتها إلى غرفة الملحق بفناء المنزل وقفت بالباب ولما دخل دخلت خلفه.

انغلق الباب آليا فعم المكان عتمة وتراقص فراشات فسفورية لا تدري ماذا حدث وكم من الوقت مضى كان زوجها يفتح الباب مغادرا.

رفعت رأسها كانت أمها ووالدها وبقية إخوتها من تعرف ومن لا تعرف يتحدثون الصوت غائب وأيديهم تتحرك وهي تردد الحياة هزيلة إن امتنعنا عن إقامة أي رابط عميق مع الآخرين.
توقف والدها عن الحديث مد يده لها وقفت أشعلت النور كانت لوحدها والملفات تستقر على ظهر المكتب.

2019 – 9 – 4

الملكوت

قبل أن أخرج مفتاح باب الشقة قرعت الباب وضغطت زر الجرس؛ مع معرفة أن الشقة خالية؛ وزيارتي لها جاء لطلب صديقتي القادمة من الرياض لقضاء شهر إجازة من العمل في القاهرة.

وأنا أفتش بين محتويات حقيبة يدي فتح الباب؛ ملامح الرجل الذي فتح الباب زرعت في داخلي أكثر من علامة تعجب.

أتذكر أننا التقينا ولكن أين؟ غاب المكان والزمان؛ إنما تناثرت ملابسي بين صالة الجلوس والممر الفاصل بين الغرف.

تخيلت أني أحلق في فضاء يشع بالنور، وأركض بين أزهار حديقة عصافيرها تغرد وخرير مائها ينساب إلى سمعي كما مقطوعة موسيقى تعزفها كمان ارتخت أوتارها؛ لصنع بحة تشابه بحة صوتي.

لأتنبه على صوت جرس الهاتف كان يجلس على طرف السرير أنهى مكالمته والتفت نحوي.

- أختي بالمطار

تلفت حولي العتمة وروائح عبقة تعيدني للوجود؛ جسدي منهك وأنفاسي متقطعة غادرت، وأخذت أجمع المتناثر من ملابسي قررت المغادرة قبل قدوم الجميع.

ونحن نتبادل كلمات الترحيب والمعاتبة التي تفضح علاقتنا؛ رن هاتف صديقتي وانساب حديثها منشرحا بالمتصل وهي تهنئه على فوزه بالدرجة العلمية التي جند روحه لها.

أخذت تتحدث عن شقيقها بإعجاب؛ لتصلها صور مناقشة رسالته العلمية في إحدى جامعات الرياض كلما وضحت معالمه تذكرت من فتح باب الشقة اليوم فتعرق جسدي وزاد نبض قلبي.

2019 – 9 – 19

السكِينةُ

الذي عرفته في اللقاء الثالث أنها امرأة متزوجة، تلبسني التوتر مؤقتا واسترخيت عاشقا لإنسانة عذبه تتشبث بالحياة بكل مكوناتها المادية والمعنوية.

في حفل زواج ابنتي وجدت في جوالي ثلاث صور تسجل وقوفي بجوار ابنتي وزوجها سعيدا بزواجها من شاب يحترمه الجميع.

وتأخر اللقاء المرتقب انقطع التواصل الهاتفي وانشغلت بسفريات فرضها العمل وقد اكتشفت أجهزت الرقابة الحكومية مصروفات مالية مشبوهة بعد قيام موظف أجنبي انتهى عقده لما وصل بلده بكشفها.

حاولت التخلص من عبء التفكير بها، حاولت إقناع نفسي بأن كل شيء عملته صحيح، متجاوزاً فكرة أنها تخلت عني، وعلي أن أتجاوز الغد بالنسيان والانتظار.

جاءت لتسقي عطشي ولتقول: إنها اليوم ومنذ عام امرأة أرملة تأكدت معها أن جموح مشاعرنا وتشكل أحاسيس جديدة نمت علاقة هي لم تشعر بالخوف من آثارها وأنا لم أفكر أن هناك لعنة قد تلاحقني.

دعاني زميل عمل بمناسبة عقد قران ابنه على ابنة إحدى الأسر الكريمة فرافقت مجموعة من الزملاء لقصر الأفراح وجاء وصولنا متأخرين لضياعنا في شوارع الحي الذي ينتصب في أحد شوارعه القصر.

استقبلنا العريس ووالده وأفراد من أسرته ولأجد زوج ابنتي بين المرحبين بالمدعوين، تأخرنا في قصر الأفراح نتابع العرضة النجدية ثم تشكل مربع للعب البلوت وقد تقلص عدد الحضور على شلة المكتب وأهل العريس.

ترددت مشاعل لم تكن قلقة نظرت لصورتها في جهاز الهاتف الجوال وهي تقف بجوار العروس والعريس أفتر وجهها عن ابتسامة صغيرة متذكرة سنوات من التطلب والشغف والإصرار العنيد على السعادة.

بحثت عن رقمه لترسل الصورة عبر رسائل الواتساب ثم أغلقت الجهاز وتمددت في الفراش لتغيب في نوم عميق.

2019 – 9 – 20

الغيبُ

هو زامل أخي الأكبر في المرحلة الثانوية، وأنا زاملت إحدى أخواته في المرحلة المتوسطة وبعد عشر سنوات أصبح أحد موظفي مؤسسة والدي التجارية.

وبما أني أقوم بمراجعة دفاتر والدي المالية التي يحضرها معه للبيت جاء تواصلنا ومعه زواجنا فأصبح أحد أفراد الأسرة.

دخل والدي المستشفى بسبب وعكة صحية شديدة تواصل المستشفى مع أحد المراكز الطبية في ألمانيا لتحديد حالته قرر أخي السفر إلى ألمانيا مع والدي لمتابعة الفحوصات والعلاج.

قرر زوجي بعد خمسة أيام اللحاق بهم لمرافقة والدي وعودة أخي لأسرته وإدارة أعمال الشركة. واعترض على فكرة مرافقتي له، وطلب مني الاهتمام بدراسة ابنتنا التي أدخلتها الروضة كخطوة أولى في مسارها التعليمي.

بعد شهر عاد والدي بصحة جيدة وعاد معه أخي وجاء السؤال عن زوجي في اليوم الثاني ليأخذني والدي إلى مكتبه في فناء المنزل ويخبرني أن مستودع المؤسسة الذي تخزن المؤسسة فيه موادها التجارية فارغ.

هذه الواقعة لم توقظ في داخلي أي سخط، ومستعدة لتلقي أي حكم ولما عدت لغرفتي وأنا أرقد في الفراش تخيلت أني أغوص في بركة رمال متحركة وأن الشخص الذي ارتبطت به، لا أعرفه.

لما تجاوزت جموح وأحاسيس أنثى فقدت مكتشف جسدها وشخصيتها، تقدمت للمحكمة بخلع زوجي المجهول المكان والإقامة. ثم تزوجت أحد أقارب والدي ومنحت ابنتي أخوين وأصبحت شريكاً مؤسساً في شركة عائلية مغلقة بعد وفاة والدي.

ولما تخرجت ابنتي من الثانوية العامة تعثر قبولها في الجامعة بسبب هويتها الأجنبية وتولى مكتب المحاماة الذي تتعاون معه شركتنا العائلية تصحيح وضعها وحصلت على مشهد بموجبه قبلتها الجامعة حتى إحضار هويتها الجديدة.

ونحن نتحلق حول المسبح في استراحة العائلة في الثمامة بمناسبة تخرج ابن أخي من الجامعة قالت أمي هامسة: (لماذا لا تخطبين ولد أخوك لبنتك) شغلني الطلب وفرض نفسه على تفكيري وحركتي إذا جاء اجتماع بعض أفراد الأسرة يوم الجمعة لتناول الغداء مع والدتي.

غير أن هذه الجمعة كانت مختلفة فقد فاتحني أخي وابنه يجلس جواره وابنتي تجلس بجوار جدتها برغبة ابنه في الزواج بابنتي، لمحت تدفق دماء وجهها وغادرت مجلسها واختفت ولاحقتها زغرودة نسمعها لأول مرة من والدتي.

2019 – 9 – 25

الرهبةُ

ما الذي ستقولينه ردا على أسئلة البارحة، لست مهتما بمعرفة ما يدور في داخلك، ولن أعرف لوقت طويل.

أنا لست يائسا إلى هذا الحد، أي حياة سعيدة التي قد نجدها معا؛ نعم لقد تحطمت لما أسأت فهم أمور فعلتها بقصد وتراكمت في أعماقي؛ وأنا أشعر بالمرارة في لساني.

سأنهار تحت وطأة الفقد، وأنا أتحمل بثبات مزيف، هل تغادرين الطائف؟

لم أتصور الأمر على نحو يخالف الدائرة الضيقة التي تحيط بنا، أنت عبر شقيقتك وأنا من خلال الأصدقاء وهم يخفون أمراً أشك أنك مصدره.

إن الشك فيك يدمرني بعد سماحك بأخذ عدة صور فوتوغرافية لك ورفض أن تجمعنا لقطة واحدة؛ لقد كنت جميلة ومبتسمة ومع ذلك أشعر أني متعب.

لقد وصلت الرياض بعد رحلة برية في إحدى سيارات الأجرة التي تنقل المسافرين إلى مدن وقرى متباعدة تستقبل الغرباء وتحتضن الفاشلين العائدين، بعد شعورهم أنه لم يعد لهم مكان في الطائف.

بعد عام من التجول في شوارع ومقاهي وأسواق الرياض لم أجد التفسير المقنع للسبب الذي دفعني للسفر.

أخبرني أحدهم وهو يشاركني الجلوس على طاولة مطعم في شارع الوزير أن أخته التي التقيتها عدة مرات برفقته موافقة على أن تتزوجني وأن أسكن معهم في بيت الأسرة الكبير.

وعلى الرغم من حبي العنيف المتهور لها، ولطفها الذي أحاطني، وحديثها الهامس ورائحتها التي تعج في أي مكان

يجمعنا، وتوهمي طعم السعادة التي سوف أتذوقه، تخليت عن كل شيء وعدت للطائف.

أسئلة البارحة. جاءت منذ خمسة أعوام؛ في ليلة من صيف الطائف الذي يعج بالألعاب النارية؛ ومدن ألعاب الأطفال والحدائق العامة العبقة برائحة أزهار الورد والياسمين في حديقة ومنتزه السداد.

أخذت شقيقتك ابنها لتشاركه مغامرة ركوب السيارات الكهربائية؛ وحتى تتسلل قدمي من تحت الطاولة لتشاركك المقعد الذي تجلسين عليه؛ ونادل المقهى يسجل طلباتنا من المشروبات الحارة.

كنا نتحدث عن مستقبل مشترك أعرف أنه لن يكون لنا في نهاية المطاف، كان التوق هو الحقيقي في تلك الدقائق ومع ذلك جاءت قفزتك خارجا؛ وابن شقيقتك يسحبك لصالة الألعاب؛ وشقيقتك التي تجلس بجواري تركز نظراتها علي.

: ماذا هناك!

: لا شيء

: ثم ماذا؟

: ليس هناك أمر يحتاج لتوضيح

لأكتشف في نهاية ذلك التعامل الغبي، من أنا وقد غابت الأشياء المشتركة.

زميل في العمل قال: لقد تزوجت أحد أقاربك، وشقيقتك قالت: إنك حصلت على ابتعاث خارجي لإكمال دراستك العليا.

عشت في الضياع فقط بفضلك؛ شيء واحد ظل يزعجني حتى اليوم في مجادلاتك أنك تتركين النهاية مفتوحة، وتتركين مساحة للتأويل.

2019 – 9 – 27

العطش

تذكرت أنها نسيت محطات العمر، من أجل أن يقال: كم هي مناضلة. وتذكر هو أن له زوجة هجرته، وله ابن لا يعرف عنه شيئًا.

كان يجلس في المقعد المقابل بصالة المغادرين، أثناء انتظاري نداء صعود الطائرة، كان يحدق في وأنا أتكلم في الهاتف؛ ولما شعر أن المكالمة انتهت تشاغل بتقليب صفحات كتاب بين يديه كان يقرأ شفاهي.

وأنا أبحث عن مقعدي بالطائرة؛ وجدته يجلس في المقعد المجاور بقرب النافذة والمضيفة تساعدني بوضع حقيبتي في رف العفش؛ انشغل بالكتاب الذي يحمل ولما اختفت المضيفة همس.

- هل ترغبين بمقعدي

- نعم

- أسأل تفضلين الجلوس بجوار النافذة

تخلصت من العباءة وجلست في مقعدي؛ نزعت غطاء الوجه مبقية على الحجاب الأسود الذي يلف رأسي. ولما توقفت عربة الصحف اختار صحيفتين دس واحدة في جيب الكرسي الذي أمامه، وأخذ يطالع عناوين الصفحة الأخيرة للصحيفة الثانية. والطائرة تستعد للإقلاع؛ وضع رأسه بين كفيه مغمضا عينيه منحيا على ركبتيه ولما استوت الطائرة في السماء، رفع رأسه وأخذ يجفف عرق جبينه بطرف غترته البيضاء، كان وجهه شديد الحمرة وكذلك في عينية تتراكم الخطوط الحمراء.

لما جاء المضيف بدلة القهوة، والمضيفة بسلة التمر أخذ فنجان القهوة واعتذر عن التمر، هنا شعرت بتواجدي.

- التمر طيب ويساعد على الارتياح

- كل ما أحتاجه في هذه الحالة فنجان قهوة

لمحني مركزة نظري على النافذة المغلقة

- هل افتحها

فك حزام الكرسي وأشار بأصبعه على الحزام الذي يثبت جسدي بالكرسي؛ عرفت قصده فتحت الحزام ووقفت في الممر ترك كرسيه ووقف بجواري وأشار بأصبعه أن آخذ كرسيه بجوار النافذة.

ونحن في صالة الوصول سأل عن مكان تأجير السيارات؛ سار معنا أحد عمال الصالة الذي اختار أحد السائقين، وهو يشكره دس في كفه بعض النقود حمل السائق حقيبتي بينما هو لم يكن يحمل شيئاً.

توقفت العربة عند باب بناية من عدة طوابق؛ ليأتي من الداخل أحد العاملين مرحبا بالقادم الذي عرفت اسمه، والمستقبل يردد أهلا أستاذ منصور الحمد لله على السلامة أستاذ منصور ليأخذ حقيبتي من يد السائق.

كل شيء يحركني ماعدا أنا التي اختفت؛ فتح باب المصعد ووقفنا عند باب يحمل رقم 510 فتح المستقبل الباب ودخل؛

ترك حقيبتي بجوار طاولة في صالة استقبال تعج بالنور؛ ولمحت على الجدار الأيمن للداخل لوحة زهور صفراء وطفلة فاتحة كفها الذي حطت فيه فرشة فسفورية ملونة.

سمعت الباب يغلق تنبهت تلفت حولي لم يكن هنا أحد؛ جلست على المقعد أتذكر من أنا وكيف وصلت هنا؛ سمعت صوته يتحدث طالبا عشاء، وتذكرت حقيبتي وهاتفي النقال، أخرجته من شنطة اليد المعلقة في كتفي وجدت أكثر من اتصال ورسائل وتساب.

تنبهت كنت ممددة في الفراش؛ تخيلت أن كل شيء انتهى وليس هناك ما يمكن أن أفعله، وجاء صوت عبر باب الغرفة الموارب (بل نبغي توضيح كل شيء) غادرت الفراش، وطليت من فتحة الباب لمعرفة صاحب الصوت تجرأت وخرجت لا أحد هنا.

حقيبتي في مكانها من البارحة وشنطة اليد بجوارها، هاتفي فوق طاولة بجوار الباب، برز وجهي ثم تكامل جسدي وأنا أمد كفي لأخذ الهاتف، شيء ما في هذا الفراغ يعذبني أن أنام مع رجل التقيته في الطائرة.

الصمت أسوأ ما في الأمر الصمت الذي يبعث الضيق؛ لقد كنت في غاية القوة مدفوعة بخاصية استدعاء كل ما أعرفه، وقد أكون أنا منتهى هذه المعرفة التي تخلت عني اليوم حتى ضللني.

وأنا في المصعد وحقيبتي تربض عند قدمي؛ همهمت بصوت خافت (الآن انتهى كل شيء، علي أن أنسى هذه الليلة) سأستمر من الصفحة التي ناولني فيها موظف المطار بطاقة صعود الطائرة.

2019 – 10 – 7

سر العين

1

في اليوم الثالث على وفاته، طلبت من أسامة أصغر أولادها أخذها إلى قبر أبيه حتى تقرأ الفاتحة عليه، لما وقف ابنها بجوارها أمام القبر طلبت منه انتظارها في السيارة، جثت على ركبتيها ونادت الجدث ثم قالت: فيصل وفاتن وحمد عيالك وأسامة وميرفت ولديّ.

2

كنت قانعة بما كتب لي الله، لم أحتج على غيابك المتكرر والطويل، ولم أعد أناقش رفضك أن أتوظف وأنا أحمل شهادة جامعية في خدمة المجتمع أو أواصل دراستي الجامعية.

3

لعلمك أنا الأديبة سر العين التي كتبت روايتين ومجموعة قصص قصيرة وديوان شعر، هذا سري وعالمي جنتي وناري الذي عشته بعيدا عنك معك، أبوح به الآن وأسامحك على كل ما كان.

4

وهي في السيارة عائدة للمنزل سرح بها الخيال، فيصل مهندس وعنده ابنة في الرابعة من عمرها، وفاتن معلمة لغة إنجليزية بمدرسة ثانوية وعندها طفل في الثانية من العمر، وحمد فضل العمل الدبلوماسي فالتحق بوزارة الخارجية برجاء العمل في إحدى السفارات، وأسامة في المستوى الأول جامعة كلية الطب، وميرفت طالبة في الثاني الثانوي.

5

لما دخلت الدار شعرت بأنفاس الجميع تجاهلت عيونهم، صعدت لغرفتها وبدلت ملابسها ثم اندمجت مع الجميع في الحوار والنقاش واستقبال المتأخرين من المعزين.

6

هو مدير مكتب رجل أعمال كون ثروته في القاهرة، ولما وجد شركاء استقر في الرياض، له مراكز تجارية في أنحاء العالم، يصطحب مدير المكتب في رحلاته وغالبا يسافر لمتابعة إنجاز بعض الصفقات التجارية، ومن خلال النسب المئوية المربحة من الصفقات كون رصيده المالي والاقتصادي في مبان سكنية استثمارية، عازلا أسرته التي أبعدها عن كل شيء مهيئا الراحة لكل فرد وان كانت كفه مغلولة في وجه مطالبهم.

7

عشقت القلم وتوسدت الورقة فنزف قلبها الدم حروفا وكلمات، وذات مساء كان صوته عبر الهاتف اعتذر عن الخطأ وشجعته على الحديث، مما كون نصها القصصي الأول لما توقف صوته.

8

ومع ابتداء النص الثاني وهي تتجول في إحدى الأسواق لمحته يتابعها، لم تنفعل ولم تشعره بالترحيب، ووقف بجانبها أمام المحاسب هو حامل مقتنياته وهي أيضا تحمل مقتنياتها، لفت نظر المحاسبة التشابه بين المقتنيات فنقلت نظرها بين الاثنين الصامتين وافتر وجهها عن ابتسامة، معها ضحك الاثنان.

9

وفي طريق الاثنين لمواقف السيارات اتفقا على لقاء آخر، جاء اللقاء حاملا بزخم انفعال وتراكم كلمات وسطور النص الثاني الذي تطاول مع الأيام من قصة قصيرة إلى رواية، تبادلا السرد حتى الصفحة المائة والثمانين الموشح بالنهاية ومعه ولدت أسامة.

10

عندها جاء اسم سر العين، وتواصلت عبر الهاتف مع دار نشر لبنانية فكانت روايتها ومجموعتها القصصية حديث بعض الصفحات الثقافية، وفي الأيام والشهور التالية كانت تتابع أثر وعيها الذي بثته داخل الصفحات منتشية أنها قالت شيئا من حزنها حتى تتجاوز الضياع الذي تكون في داخلها.

11

وجاءت روايتها الثانية، أحداثها لم تتجاوز سور المنزل وسكانه وزائريه، خلال أربع وعشرين ساعة في مائتين وأربعين صفحة، كل عشر صفحات غنية بأحداث ساعة كاملة، فيها ثوان في أماكن متفرقة لاتصال هاتفي من الأب يسأل كما هي العادة عن الوضع، جاء البناء الفني والمعماري للرواية بعد طبعها مثار قلق النقاد.

12

ولما تخرج فيصل من الجامعة والتحق بالعمل كان التفكير في زوجة له، وأثناء البحث لفت نظرها وهي خارجة من منزل إحدى الأسر بعد مشاهدة ابنتها وتقارب الصفات المطلوبة، شاب يقف بجوار سيارتها أثار الرعشة في جسدها.

13

قال السائق: ماما السيارة بنشر. فعلا كانت إحدى عجلات السيارة مفرغة من الهواء هنا أبدى الشاب استعداده لتوصيلها لمنزلها، حدقت فيه مبتسمة وسبقها إلى سيارته.

14

في الطريق عرفت أنه شاعر وأن له ديوانا مطبوعا، شاركته الحديث ولمست أن إحدى فتيات المنزل الذي زارته سكنت قلبه، وهي تترجل من السيارة قدم لها نسخة من ديوانه، ولما قلبته وهي تتابع أخبار التلفزيون في صالة الجلوس جاء رقم هاتفه.

15

بعد عشر صفحات من الديوان هاتفته، كان ينتظرها فأخذت تناقشه في النص الذي وصلته، كانت تخريجاتها لبناء

النص حارقة، فأرسل لها قبلة عبر الهاتف، ومع تكرر الاتصال أصبحت شاعرة لم تعرض نصوصها عليه وإن وجدت فيه التمرد الذي سكن بعد إفراغها لجزء من حزنها فتجاوزت أزمة النقص وأيقظ حواس أرادت لها الكمون.

16

وهي في الفراش والعتمة تلفها وكل شيء في البيت ساكن، همهمت: أنا من لحم ودم ولمعت في الظلام عيناها، فأشعلت نور الغرفة تفقدت بقايا جسدها أمام مرآة دولاب الملابس. دخلت المطبخ وتجرعت كأس ماء من البرادة ثم جلست أمام التلفزيون، وهي تتابع أغنية صاخبة من فلم أجنبي، اتصلت.

قال: كنت أنتظرك فتراكمت القصائد وخلفت ميرفت، التي مع انتقالها من المرحلة الابتدائية إلى المتوسطة جاء طبع ديوان الشعر.

17

وحيدة تصرفت ومع من حولي انشغلت من خلال الظاهر بأسرتي، وجاء موت زوجي لدمج الباطن بالظاهر، عشر سنوات ولم أصل لنقطة التقاء وإن توسعت دائرة الأصدقاء من خلال عضويتي بمركز اجتماعي نشاط ثقافي ورياضي غني بلحظة تحد مع البعض في سباق ترفيهي نتجاوز الوحدة والضياع.

18

وذات ليلة وأنا أجلس في فناء المنزل أتأمل الفضاء، وندفاً من السحب تقترب من القمر لحجب نوره، جاءت ابنتي فاتن لم تقاطع تأملي، ووضعت كفها على كفي المنبسطة على متكئ المقعد وهمست: وين وصلت سر العين.

19

قامت من مقعدها جلست في حضني، طوقتها بذراعي أشم أنفاسها وانساب دمعي؛ فأخذت أبكي بصوت مرتفع.

المتأنقة

جاء اللقاء الأول صدفة، كانت برفق والدتها التي سألت عن مكتب الموظف الذي تراجع في إدارتنا، سرت مع الاثنتين ووقفت معهما أمام مكتب زميل العمل وعدت لمكتبي، وبعد نصف ساعة كانت وأمها أمامي وابتسامة تعلو وجهها شاكرة مساعدتي في إنجاز معاملة والدتها وطلبت الأم رقم هاتفي حتى تعرف مني مواعيد مراجعتها.

جاء اللقاء الثاني بعد أربعة أيام، وقد طلبت من الأم بعض الأوراق المتعلقة بمعاملتها، قالت: إن أمها تنتظرها في سيارة الأجرة أمام باب الإدارة، طلبت منها إحضار والدتها وأبديت استعدادي أن أعيد الاثنتين للمنزل بعد التأكد من الموظف الذي عنده أوراق معاملة أمها أنها اكتملت.

عرفت أنها الرابعة في تسلسل أخواتها والسادسة في ترتيب الأبناء والبنات وعددهم تسعة، والدها موظف كبير ووالدتها

من أسرة تجارية وهي طالبة في الجامعة، وتواصل حديثنا عبر الهاتف وأثناء الحوار دعتني لزيارتها بالمنزل، لم يكن هناك أحدٌ فالجميع في مناسبة عائلية بمنزل خالتها.

عرفت أختها الأولى في الترتيب ما تقوم به، وقد شاركتنا جولة على المكتبات ومراكز خدمات الطلاب ونحن نبحث عن مراجع وملخصات لبحث كلفها إعداده أستاذ المادة مع اثنتين من زميلاتها، فأخذت تسهل اللقاء وتمنحنا فرصا لنشعر أننا في أمان.

ومع احتفالنا بتخرجها من الجامعة، كانتا الثانية والثالثة قد عرفتا بالتواصل عبر تفسير شهواني لم تجد فيه صوراً مؤذية طالما أنها واثقة من حبها، وإن عتبت الثالثة وهي الأقرب لها لتأخرها في اكتشاف صديق أختها، ولما جاء اسمها في بيان المرشحات لبعثة خارجية لم أشعر بالقلق فأحد إخوتها سبقها إلى الجامعة التي حصلت على قبول فيها وفق تخصصها.

رتبنا أنها بعد إكمال عامها الأول نعلن زواجنا وأسعى من قبل إدارتي في الحصول على دورة تدريب تشمل إتقان اللغة الإنجليزية لمدة عامين في الدولة التي تدرس بها، كان الترتيب حلما استثنائيا يربطنا نحن الاثنين تجاوز لحظات التردد والتمرد، وجاء تطبيقه على أرض الواقع مرتبكا.

والدي قرر زواجي من ابنة قريبة له ووالدتي أيدته، شعرت بالقلق ووجدت أن علي مناقشة الأمر مع أختها الأولى.

رتبت أختها مكان اللقاء في منزل إحدى صديقاتها، وهناك غرقت في النقاش الروحي والجسدي مع امرأة مكتملة تسيطر بشكل تام على جسدها، حضر نهاية النقاش الصديقة بعد غياب ثلاث ساعات وابتسامة انتصار صغيرة على محياها.

تشتت ذهني وشعرت بالذنب فقد أضفت إلى وهمي وهماً آخر، وتكرر الوهم في لقاء ثان وحديث طويل بمطعم أثناء عشاء هي من أرغمني على قبوله، استسلمت وكنت أداري انكساري عندما أتواصل هاتفيا وعبر الانترنت، باحثا عن

حجج أغذي بها سخطي.

وشاركت الثانية استعدادها الزواج برجل أعمال من أسرة والدتها، وكنت أرافقها وأختها الأولى في بعض جولاتها في السوق أو مشاغل الخياطة، وذات يوم وهي بجواري في السيارة ننتظر أختها الأولى أمام الباب (قالت: أنا خائفة) لم أهتم ولما جاءت أختها وانطلقنا وغابت الاثنتان داخل مركز الخياطة وتجهيز العرائس لقياس ثوب الحفل وموعد إكمال الزينة وترتيبات حضور إحدى العاملات لقاعة الحفلات، خيم الصمت على ثلاثتنا وإن طلبت منا الأولى الذهاب لمنزلها لشرب الشاي.

ونحن نشرب الشاي رن هاتف الثانية وكان أحد المحلات التي تسوقت منها للحضور واستلام مشترياتها، اعترضت الأولى وأبدت استعدادها للذهاب مع السائق وعلينا إيجاد مواضيع لخلق حديث ممتع بيننا حتى عودتها.

بهدوء (قالت: أنا خائفة) وعرفت مصدر خوفها واتفقنا على أن ثمة صداقة روحية بيننا وعليها تجاوز الخوف بالاستسلام كليا لما وافقت عليه، فأدركت أنه أطيح بي وعلي تجاوز اللحظة.

قالت: تصدق البارحة حلمت أنني ألاحق حمامة بيضاء في سطح بيتنا لما قمت من النوم شعرت بانشراح لم أعتده.

تزوجتُ الفتاة التي اختارها والدي واحتفلت بها أمي، وأنا في الأسبوع الثاني من شهر إجازة من العمل، اتصل أحد الزملاء يعلمني بوصول موافقة الوزارة على ابتعاثي، رتبت أوراقي وقمت بصياغة جديدة لبرنامج السفر بعد إضافة زوجتي إلى جدول كنت أعددته، وبعد أشهر ستة وأنا في مكتبة الجامعة التي أدرس بها وجدتها، لمحتها تغادر المكتبة لحقت بها ودخلت خلفها المطعم وقفت أتلفت باحثا، كانت تجلس مع اثنين، لوحت بكفها قالت: أخي وهذا زوجي.

كم أنا قلق، كنت كما فأر في المصيدة هي وزوجها وشقيقها، وفي داخلي صراخ وحولي طيور بألوان سوداء وسيقان طويلة، كانت تضطجع على ظهرها في متنزه الردف تراقب النجوم وتبصر تحقق أحلامها.

ها هي تخدش كبرياءه وقد أكملت اللعبة رفعت رأسها حدقت فيه مبتسمة وطرفا شفتيه يرتجفان بعصبية، همست أحببتك إلى حد غير معقول إنما أردت ومن أعماقي أن أنجو منك.

تذكرت أني كنت أركض في جزيرة لا أنتمي إليها، باحثا عن ماء عن عالم فقدته يوم عطشت أول مرة، كخالد يعلم أن الحاضر تشكل معه الغد والفقد ونهم لشيء آخر، وحين غادر الثلاثة المكان، عرفت أني كئيب فاجتاحتني نوبة اشمئزاز من نفسي.

الخلود

بينما كنت أقوم بجمع مراجع البحث الذي أُعِدُّهُ لنيل درجة الماجستير، وقع بين يدي كتاب من إعداد باحثة في مجال مساند أعدته لمنسوبي المركز العلمي الذي تعمل به، مما حداني إلى الاتصال بالمركز بحثا عن بعض مراجع دراستي ولم يفدني الاتصال الهاتفي، فزرت المركز وبعد نقاش مع أمين عام المركز؛ عرفت أن الباحثة من أعضاء هيئة التدريب فزودته برقم هاتفي وحاجتي لعلها تساعدني.

بعد أيام جاء اتصالها وأمهلتني أسبوعا للبحث، وتجاوزنا أيام الأسبوع فاتصلت بها كانت مريضة وترقد بالمستشفى، زرتها وشعرت أنها لم تتوقع ذلك؛ قدمت لها باقة ورد وانتظرت تجاوزها الحالة المرضية.

كان اللقاء الأول بيننا في صالة استقبال فندق الشيراتون وبرفقتها آخر، لم أسعَ لمعرفته وإن ذكرت اسمه، قدمت خطة

العمل والمراجع والمصادر مؤشرا فيها على المتوفر وعرفتها أنني أبحث عن الباقي، تكرر لقاء الفندق حتى اكتملت مراجعي ومصادري؛ وأخذت أكتب بحثي فأبدت استعدادها للطباعة والمساهمة في المراجعة والتنسيق.

اندمجت أفكارنا والتقت خواطرنا فقد كان البحث أحد مصادر عملها، ومع تعدد اللقاءات عرفت أنها من مؤسسي المركز، والآن تخطط للمرحلة القادمة في حياتها، بشرتها سمراء مائلة للبياض وجسدها الرشيق يحمل بمكوناته طاقة تتجاوز الحدود، موفراً تقارب روحي خلق شراكة تناص للعمل الممزوج بالحب؛ في حلبة غنية بمادة تشابكت أطرافها.

وذات مساء دعتني لزيارتها، فتحت الباب ووجدت أوراقي متناثرة فوق مكتبها، ولا أدرى لما وقفت خلف الكرسي الذي تجلس عليه متابعاً نقاط ملاحظاتها على صفحات البحث في الحاسب، نهضت من مقعدها واختفت. لما لحظتُ تأخرها وجدتها تجلس على أحد كراسي طاولة طعام صغيرة بالمطبخ.

قلت: آسف

قالت: كانت. . ولم تكمل

اكتمل البحث وحصلت على الدرجة وافتقدتها في قاعة المناقشة، أسرعت إلى السكن كانت هناك أخرى لم تستوعب كلامي واعتبرتني فاقداً للوعي، في الصباح كنت في المركز فبارك الموظف حصولي على الدرجة، ولما طرحت اسمها أخذ يستفسر عن سبب بحثي عنها.

قلت: هي من ساعدني في تحقيق النتائج! صمت وفتح درج ملاصق لمكتبه.

قال: هي من ساهم في تأسيس المركز لكن سافرت منذ عشر سنوات وكنا على تواصل حتى توفيت قبل أربعة أعوام.

قلت (بصوت هامس وأنا أحدق في صورتها): كانت معي حتى اعتمد المشرف رسالتي

قال: من؟

لم أرد، تركت نسخة من الرسالة وصورة من وثيقة الدرجة على المكتب وأخذت الصورة، غادرت الغرفة وفي باحة المركز شعرت بنسمة تحمل عطرها، تلفت حولي لمحت أمين المركز يقف في نافذة غرفته؛ ركبت سيارتي وأنا أترجل أمام باب المنزل لمحت على المقعد الخلفي وردة صفراء مربوطة بشريط أزرق

فاطمة

بكل بساطة لم أعرف عمق أحاسيسي نحو أمي، إلا عندما وقفت عند قدميها وهي ممددة على نقالة بممر مستشفى الملك فيصل بالطائف جثة هامدة، أنتظر تقرير الطبيب وشهادة الوفاة لدفنها.

كانت أمي الزوجة الثالثة لوالدي، الأولى تركها حامل وهاجر بحثاً عن المعاش، والثانية تزوجها من إحدى قرى المدينة التي استقر بها في أقصى جنوب الوطن.

وأمي من ذات القرية التي جاءت منها الزوجة الثانية، فرعت ابني الزوجة الثانية المتوفاة، بسبب مرض مجهول لم يمهلها طويلاً.

كنت في الثانية من العمر عندما توفي والدي، فلم تسمح لأحد بأخذ ابني زوجها، ولم تتخلَ عن ابن تبناه والدي، عثر عليه

بالمسجد جوار جثة لرجل مجهول، ولم تفرط في كابن وابنة لم تكمل سنتها الأولى.

ضحت بكل شيء وتزوجت برجل وثقت به تكفل بها وتعهد باحتضان أبنائها الخمسة، وعاكستها صروف الحياة، استغل الرجل حرصها وخدع حنانها وسرق أمومتها، أحضر زوجته الأولى وأولاده وأخته، وتمتع بميراثنا باع ورهن ما تبقى من إرثنا المادي والمعنوي مستغلاً كوارث الزمن.

وتنفيذا لأوامر إدارته جاء انتقالنا للطائف، تخلى عن كل شيء بناءً على أمر النقل وأسرته التي أخذت تلاحقه، إخوتي من أمي كانت معاملته لهم أقل طموحاً واهتماما من أولاده وبناته من زوجته الأولى المحميين بأقاربه وأقاربها.

حنان أمي وعطفها ولد في داخلها نعومة ملمس اللبؤة وعنف الأسد العجوز، ومع الوقت اكتشفنا أن هناك قطعة أرض نسي زوجها بيعها أو رهنها، فجرى بيعها وشراء منزل الطائف. كان المنزل باسمها واسمي فقط. المنزل قديم ومن الطوب

الطيني مسقف بالخشب وجذوع الأشجار والتراب، وتم تجديده مما لفت أنظار أبناء وبنات زوجته الأولى، وبعض من أفراد أسرته.

شعرت بالحزن وقد قرر هجر البيت حتى أتنازل عن نصيبي في المنزل، أمي وبملمس اللبوة الشابة، ومخالب الأسد العجوز؛ حذرتني من الموافقة، فجاء طلاقها وتطور عنف إخوة إخواني من أبيهم.

جاء العزاء في وفاة أمي في منزلي، وتوافد المعزون أقارب وأصدقاء يذكرون معاناتها وحياتها الصعبة، وحرصها على أن أكون منتصبا مهما كانت الظروف، لتصفعني خالتي برفضها مشاركتنا مراسم العزاء بمنزلي، وتذكرني في ثورة غضب أنها رفضت طلب أمي تزويجي إحدى بناتها.

لم أهتم بالأمر وانتهت أيام العزاء، وأخذت الذاكرة تترهل وأنا أفقد في كل يوم من يتحدث عنها، وليبقى المنزل القديم مكاناً لمن تتعثر به الخطى وليتجدد بريق الذكريات.

1435 – 8 – 14

الرقص في الوقت الضائع

أشعر بألم في أسفل بطني، راجعت المركز الطبي بالحي، وجاءت المعاينة الظاهرية للطبيب غير شافية، فقام ابني البكر الذي التحق بالجيش بعد الثانوية بعمل ملف باسمي في المستشفى العسكري وحدد موعدي الأول كانت الطبيبة كثيرة الحوار والنقاش وكان ابني يقاطعني للإجابة على أسئلتها لأكمل ملفي الطبي.

وتكررت مواعيد المتابعة، وفي الموعد الرابع، أكملت فحوصات الدم للسكري وقياس الضغط وباقي الكشف الكامل. المفاجأة بعد أن كتبت العلاج غادرت مقعدها وسارت معي حتى باب العيادة.

في الموعد الخامس كنت أنتظر دوري في غرفة الاستقبال وحيدا إذ كلف ابني من إدارته بمهمة خارج مدينة الرياض تردد اسمي عبر نداء المرضى لدخول العيادات توجهت

للعيادة التي اعتدتها كانت الطبيبة وممرضتها الأسيوية قاست نبضي ونسبة السكر في دمي.

قالت الطبيبة: كل شيء تم التحكم به

قلت: الحمد لله

قالت الطبيبة: لم يحضر ابنك

قلت: أسامة كلف بمهمة عمل من إدارته خارج الرياض

قالت الطبيبة: عندك غيره

قلت: ثلاثة أبناء ذكور وابنة

قالت: أسامه الأكبر

قلت: نعم

قالت الطبيبة: متزوج

قلت: لم يتزوج بعد وأفكر في ذلك

قالت الطبيبة: موفق

أنهت الممرضة تسجيل ملاحظاتها وقد ران الصمت منتظرا الوصفة الطبية للعلاج فتحت الطبيبة درج مكتبها العلوي

وأخرجت دفتراً حجمه كبير كما خيل لي بين أوراقه أوراق أخرى ملونة وضعته على المكتب.

قالت الطبيبة: منذ موعدك الأول شعرت أني أعرفك

قلت: نعم

قالت الطبيبة: تأكدت من ذلك عندما هاتفت أختي المقيمة في أمريكا

قلت: قد يكون

قالت الطبيبة: لك أخت اسمها هاجر

قلت: نعم رحمها الله

قالت الطبيبة: هاجر زميلة أختي فلوة في الثانوية

قلت: وبعد

قالت الطبيبة: وقتها كنت أنت في الثانوية الصناعية في قسم الكهرباء

قلت: وهو عملي اليوم

قالت الطبيبة: وبسبب هذا التخصص دخلت بيتنا

عندها سرت رعشة وهم في جسدي معها تجاوزت جدران العيادة إلى زمن بعيد؛ كنت الابن الثالث بين الذكور والخامس في الأبناء والبنات ثلاثة أولاد وخمس بنات، والدي موظف في قسم مالي في إدارة حكومية تمكن من رعايتنا، وتعثرت دراستي في الابتدائية والمتوسطة فالتحقت بالثانوية الصناعية وأنا في الثامنة عشر،

أخي الأكبر تخرج من الجامعة وعين معلما في جازان وتدرج حتى استقر به الأمر في جدة أختي الثانية في الترتيب توقفت عند المتوسطة وتزوجت.

أنا وهاجر الرابعة في الترتيب كان طموحنا تنمية مهاراتنا هي تهوى الخياطة والتفصيل فكانت درجاتها في التدبير المنزلي الأعلى مما ساعدها على الالتحاق بالجامعة.

وأنا هوايتي في الكهرباء عطلت اهتمامي بالمواد الأخرى، وكان تعثري الذي قاومته بمزيد من العسف وتبديل برنامجي اليومي بما يعيد التوازن لخطواتي، فكان التحاقي بالثانوية

الصناعية ثم حصولي على دبلوم من قسم الكهرباء في الكلية التقنية والعمل في المجال الحكومي.

في الموعد السادس الذي تأخر بسبب ضغط المواعيد، حرِصتُ أن أكون وحيدا، حسب توقع الطبيبة التي لم تستعجل الممرضة في تدوين أرقامها وكتابة ملاحظاتها

قالت الطبيبة: هاه هل تذكرت شيئاً؟

قلت: انتظر المزيد منك

قالت الطبيبة: والدي مهندس معماري ورئيس الإدارة الهندسية في إدارته التي لها مشاريع خارج الرياض.

قلت: المهندس بكر إبراهيم

قالت الطبيبة: الشيخ بكر إبراهيم رجل الأعمال المعروف ورئيس مجلس إدارة أحد البنوك

قلت: نعم

قالت الطبيبة: تمت محاربة والدي في قيمه وعمله مما أثر على علاقته بأمي التي وجدت فيك البديل المناسب

قلت: نعم

قالت الطبيبة: أختي المراهقة كانت تتوسم فيك فتى أحلامها فأنت شقيق زميلتها المفضلة

قلت: أنا

قالت الطبيبة: إنما تبني أمي لك أفسد خططها

قلـت: وأنت

قالت الطبيبة: كنت في الثامنة لا أثر لي

كان دخولي المنزل أول مرة لحل إشكال كهربائي في الفيلا التي تسكنها العائلة واستعنت بشركة لديها مهندسون للإصلاح الذي معه أصبحت الأم تستعين بي في حل مشاكل الأدوات الكهربائية وأعطالها.

ثم تطور الأمر مع غياب زوجها المهندس في رحلات عمل وحماية حقوقه المعنوية والمالية التي شغلته عن دوره الأسري

فخلق تباعد ذهني وجسدي بينه وبين زوجته، فاعتبرت الأم ذلك إهمالاً لها وأنها لم تعد المؤثرة داخل المنزل فأخذتها هواجسها إلى عوالم أخرى، فأصبحت تعاني من توتر نفسي وقلق جسدي تعالجه بأدوية مسكنة.

هوسها صورني هلاماً في إطار التكوين وعليها تشكيلي كيفما تشاء، كما أوجدني عالمها المشوش.

ذات مساء وقد غربت الشمس رن هاتف المنزل كنت الأقرب رفعت السماعة؛ كانت هي تطلب حضوري مشترطة أن أركب سيارة أجرة، لم أستوعب طلبها إنما نفذته لم يكن هناك أحد، هي من فتح الباب العتمة تعم الممرات والضوء القادم من الشارع يتسلل، شعرت أنني غير موجود وإحساس يشبه الأسف يتدفق داخلي، كانت تخدع نفسها، بدت قلقة ما تعرفه أنها حددت هدفها الذي عذبها، ليتوقف كل هذا مع رنين جرس الباب.

كنت حينها في الثالث الثانوي؛ لم أتجاوز الأفكار النظرية عن المرأة وأحلام ليلية تربك حراكي داخل المنزل، وبعد شهرين من التجربة الأولى رتبت للقاء آخر أصبحنا فيه نمارس عبثنا بعد مغرب الأربعاء الأخير من كل شهر.

ذات مساء قالت: إن لم تتركني فسأطير كيمامة

قلت: سأتعقبك كعقاب

قالت: وستقتلني

قلت: آخذك إلى الغابة ونشيد عشنا

وينتهي وهج اللحظة الساطع ولتفتح الأبواب من تلقاء نفسها ويعم الضياء المكان، برنين جرس الباب قبل أذان العشاء، فقد وصل السائق الذي يقلها إلى حيث تكون الأسرة في لقاء شهري يتناوب ثلة من الأصدقاء والأقارب ترتيبه.

وخلال هذه اللحظات المستقطعة حرصت على تثقيف نفسي عاطفياً بمطالعة المجلات الفنية والثقافية واقتناء الروايات والقصص العاطفية. فشعرت أنها بعد اللقاء المتكرر تتحسن

نفسيا وتهتم بهندامها. لكن أمور المهندس زادت سوءًا فقرر وهو يعد لزواج ابنته فلوة المتخرجة من الثانوية زميلة أختي أخذ إجازة من العمل ومغادرة البلاد وكنت في المستوى الثاني في كلية التقنية.

كان حفل الزواج حديث والدتي وأختي التي أعلنت أن زميلتها سوف تسافر مع زوجها الذي يدرس في أمريكا وأن موافقتها جاءت عن رغبة في إكمال دراستها في مكان آخر تجد فيه نفسها ليس من خلال إقناع أمها لها، أو قناعتها بأن المتقدم لطلب يدها هو من تتمنى أو يتفق مع مواصفاتها التي كل يوم تتجدد أثناء نقاش الصديقات في فسح الحصص الدراسية اليومية وخلوات دورات المياه في التلصص على المدخنات من الزميلات وإرعابهم بالوشاية.

بينما كنا نتحدث أنا وأمي وأخواتي وإخوتي بعد صلاة المغرب، رن جرس الهاتف. فجاء صوت فلوة العروس زميلة هاجر تطلب حضوري لمنزل أسرتها. وأنا في الطريق إلى المنزل، عرفت أن الجميع مسافرون منذ ثلاثة أيام وأنها سوف تسافر بعد يومين، هذا التصرف اعتدته مع أمها فزاد قلقي. وتساءلت: ترى هل انفتحت أبواب جهنم وهل كانت تعرف؟ فتحت فلوة الباب، كانت تتدرع بعباءتها وشعرها القصير يلفه شال أحمر شفاف يفتر وجهها عن ابتسامة صغيرة جلسنا متقابلين في غرفة الجلوس.

قالت: كنت حلمي

قلت: لم أعرف

قالت: أمي خطفتك مني

قلت: نصيب

قالت: اعتبرتك ابنها الذي لم تلده

قلت: هي من خلط الأمور

قالت: أتمنى أن تحفظ ذكراها

ولما رن جرس الباب

قالت: الآن أسافر وقد انزاح هم كبير كان يثقل كاهلي

قلت: والآن

قالت: كما أنت شقيق زميلتي أراك صديقاً وأخاً

وطلبت أن أنتظر حتى تغادر وقد سحبت خلفها حقيبة انتصبت في زاوية الغرفة دست بها أشياء أخذتها من غرفتها لأغلق أبواب الدار.

قالت الطبيبة: هل تخلصت من مفاتيح الدار

قلت: ترددت ولكن بعد تخرجي والتحاقي بالعمل نفذت طلبها

تذكرت اسم الطبيبة كان "في" وكانت في الثامنة من العمر؛ أختي هاجر تخرجت من الجامعة وتعسرت ولادتها ونزف دمها حتى لفظت أنفاسها ومولودها الأول يصرخ معلنا وجوده.

بعد عامي الثاني في العمل تزوجت وبعد ثلاثة أولاد وبنت ومع تقسيم إخوة وأشقاء زوجتي التركة بعد وفاة والدها، تصاعد خلافهم مع إخوتهم من أبيهم كان زواجي من أختهم محور نقاش أنا عامل كهربائي وهم من عائلة معروفة.

وأمام هذه الإشكالات غادرت زوجتي الدار وطلقتها بعد عدد من جلسات المحكمة فشل فيها أهل الخير في التوسط، لتفاوت في القيم الاجتماعية معها تنازل إخوتي عن منزل الأسرة بنسب في نصيبهم من الإرث فأعدت ترميمه ليستوعب أولادي وتعود أمي المقيمة عند أخي الأكبر في جدة لرعايتي ورعاية أبنائي.

عرفت أن فهدة التي يعرفها الجميع بأم أحمد لم تنجب سوى فلوة وفي، وأنها ماتت منتحرة في بيروت؛ إذ استقر المقام بالمهندس ثم مدد إجازته الإدارية ثم قدم استقالته وكون مع مجموعة من رجال الأعمال في بيروت شركة أعمال. كان وسيط دخولهم السوق السعودية، فهدة في غمرة انشغالها بمجتمعها

الجديد عادت حالتها النفسية للتوتر. لم يستطع المهندس التوفيق بين حالتها ودوره كرجل أعمال فأدخل ابنته "في" في مدرسة داخلية حصلت عبرها على الثانوية والتحقت بكلية الطب في الجامعة الأمريكية.

كانت فهدة تقاوم مراقبة الممرضة التي ترافقها وأخرى تساعدها على حياتها كسكرتيرة لها وفي غفلة من الاثنتين دخلت غرفتها، تمددت في مغطس الحمام وهي في حالة غير طبيعية، ثم قطعت شرايينها فتدفق دمها ولفظت أنفاسها.

تخرجت الابنة "في" من كلية الطب، وعملت في المستشفى الجامعي ببيروت عامين. قامت لجنة طبية تابعة لشركة تشغل المستشفى العسكري بالرياض بزيارة بيروت للتعاقد مع كادر طبي وفني وإداري، فجرى التعاقد مع الطبيبة في فعادت للرياض وبعدها انتقل والدها للرياض لاحقا بها.

في الثلاثين من العمر تجاوزت في عُقَد الحياة ولم تقرر كيف تعيد صياغة حياتها وإن لم تفقد الكثير من أجواء بيروت إذ

خمسين في المائة من العاملين معها هم رفاق درب وحياة كما أن الوسط الاجتماعي داخل المستشفى لم يصدمها وحراك المجتمع في الرياض خلق حياديتها الذي وفر لها الاطمئنان النفسي والجسدي.

في مراجعة لم يرتب لها كنت أجلس أمام الطبيبة تقلب ملفي الطبي، ثم تحدق في مبتسمة عرفت أنها تخطط لشيء

قالت: الفاء الثالثة تبحث عن نصيبها فيك

قلت: لم أفهم

قالت الطبيبة: فهدة الفاء الأولى اكتشفتك، وفلوة الفاء الثانية ببعض القلق المشوب ببعض النقمة تخلت عن شعورها بحبور ولم تفسد خياراً لم يخطر ببالها لكن قلبها عرف السلام؛ وبقيت الفاء الثالثة طفلة الأمس التي لم تدرك حينها الأمور فماذا تبقى.

قلت: أنت

قالت الطبيبة: نعم

هذا هو حقا يوم من تلك الأيام التي يرتكب فيها الواحد حماقات لم يرفض سطوتها، كل الآتي عبثي: الأمكنة، الناس، الكلمات التي نتفوه بها الأفكار التي تنسج عوالم نتمنى أن نكون ضمن نسيجها وإن جاء ذلك بلا معنى.

قالت: لم أصدق أنك النور الذي اقتحم وجودنا

قلت: أنتم من أوجده

قالت: كانت فلوة صادقة

قلت: في ماذا؟

قالت: إنك من خلقت سعادتها التي تعيشها اليوم مع زوجها وأبنائها

قلت: هل هي سعيدة في أمريكا؟

قالت: وتغريني بأن ألتحق بها

أخبرتها برغبتي في بقائها في الرياض، لم ترد علي.

وجدتها اجتازت ممرات المستشفى برفقة رجل يضج حياة.

قالت الطبيبة: زوجي بدر

قلت: نعم

قالت الطبيبة: بدر ولد خالتي ومدير مكتب الوالد في إدارة البنك، جاء لأخذي لتناول الغداء في أحد المطاعم

حدقت بها كانت السعادة تطوقها، أصر بدر على دعوتي لمشاركتهما الغداء؛ ترددت وجاء تصريحها بأني موافق.

سفرُ الزهور الصفراء

نحن نستطيع رؤية الأشياء ولمسها، قضيتي وفق نظام اجتماعي غارق في الخصوصية، مجتمع غير طبقي تشكله الأسرة والعائلة ورابطة النسب؛ هدفت إلى زيادة دخلي المادي والاستفادة من كل الفرص التي تعترض طريقي.

جاء اتصاله في العاشرة صباحا، مهمتي الجديدة، نقل ضيوفه إلى مزرعته في عشيرة شمال الطائف لتناول طعام الغداء وقضاء بعض الوقت بين الأشجار وخرير المياه، كان الضيوف سيدة وابنها في الخامسة من العمر مع مرافقاتها الثلاث.

تجاوزنا وحشة طريقنا الذي لم يستغرق الساعة، بحديث متقطع تبتدره السيدة الجالسة في المقعد الأمامي مع ابنها ثم تشركنا عنوة فيه، وفي الثانية عشرة ظهرا جاء طعام الغداء، وبعد تناول الشاي قامت أصغرهن بأخذ الطفل ومغادرة المكان، واختفت السيدة مع الأخرى بينما العجوز أسبلت

جفنيها وارتفع شخيرها، كنت الجالس الوحيد وأمامي الفضاء وندف السحب.

قمت متلفتا حولي وقد تسرب الملل إلى أعماقي، اندفعت في ممرات المزرعة أرتب أفكاري لأجد الطفل والفتاة يجلسان على حافة بركة ماء تتسرب منها مسارات سقي مربعات تم حرثها وأخرى مزروعة بأشجار فاكهة الصيف، توقفا عن خوض المياه بكفيهم عند اقترابي؛ ولتجاوز أفكاري حطمت حمى التوتر فحملت الطفل وحاولت غمس قدميه بالماء وقد ارتفع احتجاج الفتاة ففجر قلقها وصخبها يقيني الموحش بالتيه؛ فتعانق حديثنا شوقا طهرته الصبوة.

في الخامسة مساء أعدتهن للدار التي نقلتهن منها بشارع عكاظ، وفي ظهيرة اليوم الثاني جاء اتصاله بأن علي إيصال ضيوفه إلى جدة حيث إنهن وافقن على أن أكون قائد رحلة العودة، عرفت أثناء الطريق أنهن من حاشية زوجة شخصية سياسية واقتصادية، يتولى صديقي إدارة أعماله في الطائف.

ونحن نلج القصر في جدة قالت الفتاة للعجوز: إن عليها تبديل ملابسها، واقترحت أنني من سوف يحقق مطلبها ومع اعتراض العجوز وافقت؛ والتفتت نحوي هامسة بسرعة أرجوك فلا أحتمل غضب العمة، أحيانا اللغة قادرة على تحقيق التماثل بين شخصين غير عابئة بالمكان والموقف متجاوزة لعبة الخداع معتمدة على حاجات الآخرين وقدرتهم على الفعل.

طلبت مني مرافقتها وأنا أحمل حقيبة جلدية متوسطة الحجم، لتشكل اللحظة قصة خرافية في سياق تراكم انضغاط زماني ومكاني مفرغ من قوة التخيل، لتشع شمس الحقيقة وفق مسميات ومعلومات لفضية تصل انحباس اتصال. كل ما يحتاجه حركة معينه تطلق شرارة الوجود.

وأنا في سوق معارض السيارات، عثر علي صديقي الذي انقطعت أخباره لسفره للعلاج على حساب سيده، وصرخ في منفعلا: لقد أمرضتني العمة تبحث عنك.

بعد جدل واستفسار للموضوع أخرج من جيبه ألف ريال وهو يقول هامسا: بنزين السيارة ومصاريف الطريق، التساؤلات لا أهمية لها الآن وقد اجتزت نصف الطريق المؤدي إلى جدة، السذاجة دفعتني إلى المنزل الذي عرفت أن الفتاة وأمها وبعض العاملين يقيمون في القصر المكون من طوابق ثلاث وشقق تعج بالسكان.

طرقت باب الشقة التي لم يغب رقمها عن ذاكرتي تأخر الرد فكررت الطرق لينفرج الباب عن وجه لم أعرفه قال: نعم قلت: حامد. دققت النظر في ثم انسحبت تاركة الباب مشرعا العتمة تضيع معالم المكان فأخذت أركز على مخزون الذاكرة منقبا عن المعلومات التي كسبتها في زيارتي السابقة.

لأجدها تجلس على أحد مقاعد غرفة الاستقبال

قالت: تأخرت

قلت: ضيعت معالم الطريق

قالت: هل علمت أن فاطمة حامل

قلت: من

قالت: أختي الصغيرة

قلت: كيف تريديني أن أعرف وأنا لا أعرفها

قالت: ألا يذكرك المكان بها

كانت هذه نقطة حساسة نبهت مشاعري التي كانت حتى هذه اللحظة خارج الزمن اعتبر دائما أنني في مكان أخر وأن كل لحظة خاصة إنما هي بلا أهمية.

قلت: بلا

لم يكن هناك أحد كانت ترتب لآتي: زوجة منذ عشر سنوات فشلت كل محاولاتها في الحمل، فقد جدفت بكل طاقتها والآن بعد حمل فاطمة سوف تجرب محاولة أخرى شعرت بنفسها حمقاء ومزاجها العكر ينفر الأشياء الجميلة التي نسقتها بعذوبة متوحشة فوق أرض بور. لتتفجر حمى اللحظات الأخيرة، انشرحت أساريرها فأشرقت ملامحها الصارمة مرحا وشبابا.

رافقت صديقي في رحلته العلاجية الثانية التي استمرت ستة أشهر، تجاوز فيها مرحلة الخطر وعاد صوته الجهوري يقلق صمتي ويشاغب بحروفه النحاسية الثلج المتراكم في أعماقي، الذي خلفه رحيل عاملة بالمستشفى تم فصلها بعد اتهامها بتكوين علاقات جنسية مع مرضى معينين تبتزهم، لم أجد هذا في علاقتي بها والتي تأتي وفق تجانس فكري نماه حرصي على إتقان لغة أجنبية، وشعوري أنها أجمل واحدة في مجموعة العاملين بالمستشفى.

لما عدنا للطائف كان الشتاء يخيم على المدينة بشوارعها الخالية من الحركة وناسها المقطبي الوجوه، ليهاتفني صديقي في ساعة متأخرة من الليل بأن عمه أخيرا رزق بابن، فر النوم من عيني وتذكرت فاطمة بنت الطبيعة الطيبة؛ الفتاة البائسة وهي تلوي أصابعها وتلوح بكفها رفضا لواقعها، غضب وإحساس بالفضيحة طوقني.

غادرت الدار ركبت سيارتي لا أدرى وجهتي لأتوقف عند مقهى مسافرين صغير تلفت حولي وطلبت من النادل كوب شاي. بعض المسافرين حولي وحديث متقطع هنا وهناك، لأتنبه على صوت النادل يطلب ثمن الشاي، عدت أدراجي وشمس الصباح بأشعتها الذهبية تنير الطريق، عدت للدار وصوت أمي ينساب عبر الجدران، كانت تطوي سجادتها رمقتني بنظرة وجلة قبلت رأسها ودخلت الفراش.

الركض عبر أزقة الزمن

بعد تسويف وتردد كانت موافقتي سبب توقف انهمار دموع والدتي التي أتعبها جسديا ونفسيا إضرابي عن الزواج، فلما سمع الجميع موافقتي بعد أربعة أعوام من عودتي من رحلة دراسية ووظيفة تتفق مع تخصصي تجولت معها في مدن وقرى متفرقة حتى كان استقراري بالرياض.

ونحن نناقش مواصفات الفتاة المطلوبة التي تقارب عمري الأربعيني جاء التركيز على واحدة من الأسرة تأخر زواجها بسبب إصرارها على إكمال دراستها الجامعية والعمل.

وهنا كان استئجار شقة للسكن وتأثيثها، كنت اختلي بنفسي في الشقة لمشاهدة مباريات كرة القدم في كأس العالم التي تذاع عبر قنوات التلفزيون المشفرة.

ولم ألاحظ أن الشقة المقابلة لشقتي بها طبيب عربي وزوجته وابنته ذات السنوات العشر حتى سمعت صوتا أنثوياً ذات ظهيرة يستأذن الدخول من الباب الموارب وعمال التمديدات الكهربائية يوصلون أسلاك مكيف الصالة التي أجلس بها.

كانت جارتي تبحث عن هاتف به خاصية الصفر لتتصل بجوال زوجها الذي تأخر ومعه الابنة التي انتهى يومها الدراسي فقدمت لها هاتفي وتواصلت مع زوجها، وقد لفت نظري جسمها الرشيق وشعر رأسها القصير والمقصوص (قصير تواليت) كالرجال.

انتهت واستأذنت اتصالاً آخر، وتبادلنا الابتسام استئذانا ولما تناولت الهاتف منها كان ساخنا وكفها ساخنة، سرنا نقاوم الاعتذار ونخاتل السؤال عن الحال حتى الباب وانتظرت حتى دفعت باب الشقة ودخلت.

انتهى عمال الكهرباء من إنجاز عملهم وجلست أتابع لقطات مكررة لأهداف مباريات الأمس وقد نسيت أن الباب لم يغلقه العمال لأجدها تقف على رأسي وبين يديها طبق به قطع حلوى وبسكويت، لمحت ارتباكي فضحكت.

ـ جاء زوجي وابنتي.

ـ الحمد لله.

ـ وهذه الحلوى سبب تأخره.

تناولت الطبق منها وخرجت، قمت بإغلاق الباب وتمددت لأخذ دقائق راحة ولكن قرعاً خفيفاً على الباب نبهني، كانت هي والابنة يستميحاني مشاهدة المباراة التي سوف تبدأ بعد دقائق وفيها يمثل منتخب بلدها فريقاً حمله الجميع الصعود لأدوار متقدمة، وقبل سماع موافقتي جلستا.

رن هاتفي يدعوني للحضور فخرجت ولم أهتم بالاثنتين، كانت والدتي التي تعرضت لنكسة صحية تنقل للمستشفى وهناك طال انتظارنا حتى كمل الفحص ونصحنا الأطباء بجلوسها أربعاً وعشرين ساعة للمراقبة فرافقتها أختي الكبرى.

في العاشرة ليلا عدت لشقتي أبحث عن الخلوة وعن متابعة باقي المباريات فوجدت قنينة عصير فواكه وطبقاً آخر به حلوى وقطعة كيك وقنينة ماء صغيرة تبقى نصفها.

في الواحدة وأنا أستعد للمغادرة أخذت أعيد ترتيب المقاعد وحمل الأطباق وآثار يوم كامل من الحركة، ولما فتحت باب الشقة وجدتها تقف في باب شقتها ترتدي ثوب نوم ناعماً قصيراً يكشف كتفيها وجزءاً من صدرها، لم تتحرك فاقتربت منها حاملا الطبق الذي تركته، تناولته مبتسمة ودعتني للدخول.

ـ تصدق لم أبحث عن الكثير؟

ـ وأنا كنت قلقا.

ـ لم القلق؟

ـ شيء لا أتحكم به.

انقطع حضوري للشقة بسبب تدهور صحة والدتي، وتناوبنا في البقاء في المستشفى، وفي هذه الأثناء التقيت بالفتاة التي اختارتها والدتي عند زيارة والدتها لوالدتي ومرافقتها، وفي الممر اقتربت منها شاكرا زيارتها وأمام نافذة الممر المطلة على الفناء توقفنا فرفعت الغطاء عن وجهها لتسمح لي بمشاهدته عن قرب، تميل للسمرة نحيلة الجسد طويلة القامة ترتدي فستاناً حديثاً ضيقاً وبعفوية أهملت طرفي العباءة لتنفتح حتى أكون صورتي عن شكلها.

في اليوم السادس صممت على الذهاب إلى الشقة، وأنا أفتح الباب فكرت في طرق باب الشقة المقابلة ولم أتشجع، كانت الساعة التاسعة ليلا والظلام والمطر والبرد يحيط بكل شيء، فأشعلت الأضواء وتركت باب الشقة مواراباً منتظرا حراك المكان، وإذا بصوت رجل يستأذن كانت جارتي وقد تهدلت العباءة المزخرفة على الكتف وزوجها وابنتها بعد عشاء في أحد المطاعم تبادلنا التحية اعتذر الجميع عن قبول دعوتي.

ولم يمر وقت طويل وإذا بالباب يقرع كانت الطفلة تحمل قنينة عصير فواكه وطبق حلوى وبسكويت تناولته منها ومررت كفي على رأسها وتابعتها بنظري وهي تدخل شقتها.

نمت في مكاني لأتنبه على الهاتف كانت خطيبتي تدعوني لمقابلتها، جاء اللقاء في الساعة السادسة كانت تنتظرني في مكان عام أوصلها إليه سائق أسرتها وعلامة التعريف

حقيبة يد خضراء وزنبيل عليه علامة محل تجاري معروف حتى لا يلفت بحثنا رجال الحسبة ومرافقيهم من أفراد الشرطة؛ وفي عربتي وبعد أن غادرنا موقف السيارات تقابلت كفانا وفي مقهى بمركز تجاري توقفنا.

ـــ دعوتي للتعارف أكثر.

ـــ هذا مشجع.

ـــ وعلينا عدم التسرع في القرار.

ـــ أجل.

وتشعب الحديث فالحاضر يدغم ذاتين في واحدة، لم يكن هناك خيار؛ ليرن هاتفها، وهنا طلبت مني إيصالها إلى المكان الذي أخذتها منه وإن اقترحت عليها إيصالها لمنزلها لم توافق فوالدتها وإحدى قريباتها في انتظارها بالمكان الذي أخذتها منه.

انشغالنا بمرض والدتي والبحث في مناسبة الفتاة التي اختارتها أمي وأسرتها زرع القلق والجدال بين إخواني وأخواتي وقد تنافس الجميع في إيجاد البديل المناسب.

بعد اتفاق مع شركة دواليب المطابخ جاء موعد التركيب الذي تأخر فسبقتهم إلى الشقة انتظر وصول عمال النقل والتركيب، وأثناء حركتهم أطلت جارتي محيية ووقفت أتحدث معها، كانت العاشرة صباحا، تتناول قهوة الصباح دعتني للدخول والهاتف يرن رفعت السماعة كان الآخر يحدثها وهي تحدق بي معلنة عن ترحيبها بوجودي.

انتهى العمال من مهمتهم وكان علي تسليمهم باقي أجرتهم، ولما بقيت وحيدا في الشقة جاءت تحمل طبق الحلوى والبسكويت وقنينتي عصير الفواكه، جاء حديثنا عادياً فقد تجاوزنا الانبهار.

وفي اللقاء الثاني بخطيبتي، قالت: هناك أمر.

ـــ خير.

ـ أعرف أن الوالدة مريضة وأنها تبحث لك عن زوجة من أجل الأولاد.

ـ كل شيء بأمر الله.

ـ أنا معك.

وعرفت أنها في زمن سابق أجرت الفحص الطبي للزواج بعد أن تقدم لها أحدهم وجاء الفحص أن صحتها جيدة وإن كانت تعاني من بعض العيوب الخلقية منذ الطفولة، أهمها ضيق المهبل الشديد، ولكن من ناحية الحمل عقيم بسبب خلل في المبايض والتصاق داخل الرحم وأشياء أخرى اكتشفتها بعد تخلي خطيبها السابق عن إكمال مشروع الزواج، كانت مصارحتها ايجابية وتمنحني فرصة التفكير.

ـ هل أمك أخبرت والدتي؟

ـ لم تفكر في ذلك.

ـ ولماذا؟

ــ لا أدري.

اتفقنا على إبقاء الأمر سرا حتى تغادر أمي المستشفى وأوصلتها إلى منزلها.

خرجت والدتي من المستشفى منهكة وبقينا حولها نرحب ونستقبل الجيران والأقارب مما أنساني الهروب إلى شقتي، كما جاء تكليفي بحضور برنامج تدريب لمدة خمسة عشر يوما خارج البلاد، فرصة للنقاهة والتفكير في مصارحة أمي بشأن الفتاة التي اختارتها زوجة لي.

ولما عدت تريثت وأخذت طريقي لشقتي وهنا كانت المفاجأة وجود ساكن جديد في الشقة المقابلة أسرعت إلى مكتب العمارة فأفادني بأن الطبيب في إجازة من العمل ويسكن في الشقة الساكن الأساسي، أخته الأستاذة الجامعية وزوجها المرافق الذي يعمل مندوب مبيعات في شركة تجارية للتوريد والعلاقات العامة وعرفت أن الطبيب يقيم في سكن المستشفى وأن زوجته تأتي وقت

الإجازات وهي تعمل محررة بصحيفة معروفة كمدير تحرير.

لم أتوافق مع هذه الأخبار فأخذت أتجول بسيارتي في الشوارع ثم قادتني إلى مطعم ومنتزه خارج المدينة يلتقي فيه الأصدقاء لقضاء الوقت ولعب الورق.

وأنا في طريقي للشقة تذكرت اسم المستشفى الذي يعمل به زوج جارتي فهو مشهور وبه خدمات طبية فندقية تجاوزت في بعض الحالات التصور الحالم، وأنا أسير على غير هدى بين الممرات كنت أجد ممرضات وعاملات من جنسيات مختلفة رشيقة وبمظهر خلاب وعلى محياهم ابتسامة تدعو إلى الاطمئنان والبحث عن كلمة طيبة.

ـ الدكتور جمال.

ـ نعم.

ـ أبحث عن الدكتور جمال.

ـ أخذ إجازة.

ـــ يعني سوف يرجع.

ـــ إذا ولدت زوجته.

ـــ نعم؟

بعد عشر سنوات حمل وإجازة مفتوحة وأن علامات الحمل اتضحت وبما أنها في الأربعين وكلما زاد عمر المرأة قلت نسبة حدوث الحمل فلابد من رعاية خاصة إذا أثمرت العلاقة؛ وهنا كان الرحيل الذي معه إبقاء الإجراء في نطاق الحلم، ولجت الشقة وتركت الأضواء تشع ولم أهتم بالتلفزيون الذي يحمل فوق ظهره صحناً وردي اللون صغير الحجم، وبجواره قنينة عصير فواكه فارغة.

في الحادية عشرة ليلا رن هاتفي كانت أختي تخبرني بانتكاس صحة والدتي، وأنهم في طريقهم للمستشفى، لم أهتم بإطفاء النور ووجدت جارتي الجديدة ومعها

مجموعة من الرجال والنسوة عند المصعد، الجميع راقب خروجي من الشقة.

ـ هل أنت الجار الجديد؟

ـ وأنتم؟

ـ نحن هنا منذ عامين؟

ـ شهر. . إنما كان في الشقة آخرون؟

ـ نعم شقيق الدكتورة.

وعرفت أن الدكتورة التي تعمل بكلية جامعية في قسم البنات كانت في إجازة دراسية أثناء الصيف، فسكن الطبيب وزوجته التي جاءت في إجازة عمل لقضاء بعض الوقت معه.

الدكتورة كبيرة في السن وجسمها المكتنز يشع بياضا والأخريات والآخرون يتفاوتون في العمر وتباين الملامح ولون البشرة.

دخلت والدتي غرفة العناية المركزة ثم لفظت أنفاسها وبعد انتهاء العزاء أخبرت أختي الكبرى بفحوصات خطيبتي وقرار الأطباء استحالة حملها.

ـــ من؟

ـــ زينب بنت الخالة نوف.

ـــ هذه تزوجت.

عرفت أنها حصلت على بعثة للدراسات العليا وتوافق ابتعاث آخر من أقارب والدها فكان زواج تسهيل السفر وإكمال الابتعاث، شعرت بالضياع أني أشبه كالكامش الذي عاد خائبا من رحلة الوصول إلى الخلود.

مع غروب الشمس وأمام باب شقتي وقفت مترددا بين الدخول والمغادرة وحولي حركة سكان العمارة وتراكض الأطفال، ولمحتها ملتفة بالعباءة تخرج من المصعد، حدقت فيها وهي ترفع الغطاء عن وجهها تدقق في أرقام الشقق ولما وجدتني أراقبها تبسمت، عندها فتحت باب

الشقة وتركته مواربا وجلست في العتمة أحدق في التلفزيون وشع نور انفتاح الباب.

ـ لم أجد أحداً.

ـ نعم؟

ـ أخي وزوجته.

كانت في زيارة لشقيقها، زوجها غادر قبل أن يتأكد من وصولها، دعوتها للجلوس. تركتها لإحضار أكل من مطعم مشويات وفلافل اعتدته، ولما عدت كانت تجلس أمام التلفزيون، قالت:

ـ سوف يأتي في العاشرة.

ـ من؟

ـ أبو ميسر.

ـ زوجك.

ـ وصغيري ميسر الحياة المتواصلة.

عرفت أن الطفل ذا السنوات الثلاث مع أبيه الذي أخذه إلى مركز ألعاب الأطفال في سوق تجاري يقتني من محلاته احتياج الأسرة من الغذاء، وحتى تزور أخاها؛ تذكرت جارتي وحملها وخطيبتي التي لم تنتظر ردي.

وفي التاسعة والنصف استعادت الهدوء ورن هاتفها كان زوجها ينتظرها عند باب العمارة وهي خارجة لمحت ابن شقيقها ذا السنوات الخمس ينسل من المصعد فهبطت مع الدرج.

أعلنت الإدارة التي أعمل بها عن برنامج تدريب جديد لمدة عام فتقدمت له وتوافق اختياري مع آخرين من إدارتي ومن دوائر حكومية أخرى، ذكور وإناث في مدينة أوروبية وأخرى أمريكية، وبما أنني جربت أمريكا سنوات الدراسة الجامعية فكان اختياري للمدينة الأوروبية لندن مع معرفتي بصعوبة المعاش اجتماعيا وسياسيا فقد كان تحديا جديداً.

جاء سكني وفق ترتيبات المعهد المشرف على البرنامج وبعد إكمال التسجيل وإعداد جدول البرنامج قررت إدارة النادي العربي بالجامعة التي تضم الكلية التي ندرس برنامجنا بين جدرانها استيعابنا في اللجان؛ وكان الحضور اللافت وجود خطيبتي السابقة التي لم يُؤثر على تركيزها وقوفي أمامها.

عرفت أنها أكملت عامها الأول وأن زوجها هجرها بعد ستة أشهر وقد انضم إلى مجموعة معارضة لم تتمكن من توحيد صفوفها في الداخل كحركة احتجاج اجتماعية بشأن مطالب الإصلاح والتغيير التي يمكن الحصول عليها بالتفاهم والحوار؛ فتحولت إلى جماعات انشقاق سياسية تتوزعها الاثنية الطائفية المذهبية والعرقية القبلية؛ وتطالب بإصلاحات سياسية واقتصادية في الوطن وفق أجندات أجنبية.

ـ ستجعلينني أشمئز من نفسي.

ـ نعم؟

ـ لن أرغب في وجود أي كان معنا.

ـ لماذا؟

ـ لجرحي القديم الذي دمك جف عليه!

وتركتها مع مجموعة من الطلاب لمناقشة اختيار أعضاء مجلس إدارة الجمعية التي تشارك في نشاطها العلمي؛ ولحق بي أحد أعضاء البعثة وجلسنا على مقعد في حديقة عامة تقبع بين السكن والجامعة.

كنت أعاني من فراغ غامض، تساءلت: ماذا عساها تريد؟ إنني أجد الخلاص في نكران نفسي، فالدم الذي يجري في أعماقي مسموم، الأمر يتطلب عملية خلق كاملة فقد تلوثت عيني ونفث الصديد سمه في قلبي، أغرق في وهم لم يتحدد إطاره ولم أسعَ إلى تجاوزه، عالمي الداخلي لم يسع لبعث تجربتي الذاتية والتعبير عنها بلغة واضحة.

وفي الصباح وأنا أستعد لمغادرة غرفتي للجامعة وجدت ورقة صغيرة تحت الباب (هذه الليلة سوف أحضر إلى غرفتك في الحادية عشرة والنصف.. خطيبتك) ذلك الشعور الملتبس الذي استقر في داخلي جميع أفراحه صارت الآن تخفي طعما غير مستساغ، فوجودها بعث في لذة لاذعة.

ـ أتعرفين ماذا فعلت اليوم؟

ـ ماذا فعلت؟

ـ لما أنهيت كلمات رسالتك، فكرت بالموت.

ـ وبعد؟

ـ تذكرت حياتي المحمومة والمعقدة.

عند مدخل مكتبة الجامعة انفصلنا، توادعنا بكلمات مقتضبة؛ لأجد زميلي في إعداد البحث الذي نشترك فيه مع باحثتين من جنوب أفريقيا ونيوزيلندا يناقش ما تم الانتهاء منه لتكون المراجعة بوجودي.

بادرني زميلي قائلاً: رائحتك عبقة.

ـــ . . . .

ثم قال: لقد حدث ما كنت أتوقعه.

ـــ . . . .

ثم قال: لقد قتلت الأوراق.

ثم قال: أنا رأيتها تسقط.

كان يسترق اللحظات لينفس عن اكتشافه باللغة العربية أمام صمت مرافقتينا وانشغالهما بتدوين الملاحظات وصياغة ورقة العمل وتوزيع المحاور عند النقاش.

واحتفلنا أربعتنا في نهاية الأسبوع الأخير بالتقدير المتقدم في مطعم الجامعة ثم في غرفة الأفريقية.

بينما أراجع بيانات أوراق إجراء في المكتب رن الهاتف كانت خطيبتي السابقة التي عادت، تدعوني لموعد عشاء مذكرة بما يقوم به المحبون في الغرب عند الموعد الأول.

سبات عميق

لم أفكر أن الحلم الذي تكرر أخيرا يتجسد حقيقة في يوم من أيام نجم سعد الذابح وقد لف الرياض الغبار ووسم اللون الترابي كل شيء، إنه الفراغ المطلق في لحظة غرق في سبات عميق إذ لم يعد هناك أحد.

كنت أنتظرها في إحدى زوايا مطعم عائلي اعتدنا ارتياده للحديث، ننشد الحب. تأخرت فتشاغلت بالعبث بجوالي ومجلة علمية وجدتها على الطاولة التي سبقني إليها النادل فطلبت فنجان قهوة واستأذنته ترك المجلة حتى حضور مرافقتي.

وجاء صوتها عبر الحاجز الذي يفصل الطاولات تتحدث كثيرا ومرافقتها تهمهم وتضحك بصوت مرتفع، ولامسني انزعاجها من شيء يمزقها كان مع توافق جسديهما هناك جزء يغمرها بالخوف والوجع ويدفعها إلى الابتعاد عنه.

رن جرس الهاتف وتوقف الحديث، طال الرنين وتوقف ثم عاد ليتوقف فقد رد أحدهم، شعرت أن هناك حركة قادمة رصدت الممر، إحداهما تتحدث بصوت خافت هي ترمقني بنظرة فارغة من علامات الاستفهام.

تركت مكاني ولحقت بها رأيتها تقف أمام المغاسل، وقفت أتأملها وقد رفت على شفتيها ابتسامة ألقت التحية، بعد فراغها من الحديث تطلعت في المرآة تعيد تمكيجها.

عدت لطاولتي، فلمحت الأخرى، كل شيء فيها يدفعني إلى الاقتراب منها ومشاركتي طاولتي فقد مللت انتظار صديقتي.

قالت: وأنا تركتني صديقتي.

قلت: نعم استمعت لطرف من حديثكما.

قالت: حديث أنثى.

قلت: ليس هناك ما هو أكيد سوى ما نلمسه.

قالت: لم يعد في وسعي التركيز.

اكتشفت أنها أنا بكل عقدي وهمومي، توقفنا عند العمل وأيام الدراسة والزواج وأتت صديقتها مرتبكة خائفة، فقد تعرضت لحادث سير تخلصت منه بأعجوبة، وصديقها يحل إشكاله مع رجال الشرطة، تركت الجميع وأخذت سيارة أجرة.

لم تعتذر صديقتي ولم يبق من الوقت كثير، ونحن نستعد ثلاثتنا للخروج، اتفقنا أن أقوم بدفع فاتورة المطعم على أن توصلاني للمنزل وتبادلنا أرقام الهواتف والأسماء.

وأنا أتمدد في الفراش بعد تفقدي ابنتي ذات السنوات الثلاث منتظرة اتصال زوجي المسافر في مهمة عمل خارج الرياض لمدة يومين رن الهاتف كانت رفيقة المطعم.

حدثتني عن صديقتها المنحوسة وباحت بألمها الذي تراه نادراً عرفت أنها تدفعني للاقتراب أكثر وأني أذكرها بزميلتها في الجامعة وأيام الدراسة وأشياء أصبحت كل حياتها.

قلت: وأين الألم؟

قالت: فيه

قلت: من؟

قالت: زوجي.

عرفت أنه يسحقها بقوة ويمزقها ويلغي وجودها الإنساني والجسدي في البيت ولا يحترم خصوصياتها بفعله غير الطبيعي، كنت أضحك من استرسالها، عرفت أنها لم تكمل عامها الأول كزوجة في شهرها الرابع، تزوجت قبل التحاقها بالعمل في منتصف الفصل الثاني من العام الرابع والأخير في الجامعة، لم تفكر أن عليها أن تحسم أمرها بشكل نهائي، إذ لم يكن لديها سوى سلسلة من الهموم الأسرية الصغيرة.

مع الوقت شعرت برغبة في لقاء الزوج، لم تعترض ولم تنفر من فكرتي فقد وجدت في شيئا مما فقدته في صديقتها، هم مشترك وفراش لم يعد شريكه يشكل همنا شعرت بالدم يحتقن في وجنتيها، انتشرت على وجهها عذوبة ملائكية، رتبنا بصمت اللحظة، كنت عندها قبل مقدم صديقتها.

أوصلني للمنزل تقطع الحديث بيننا في السيارة أنا في المقعد الخلفي وهو يسترشد العنوان شعرت بنزقه.

قلت: توقف حتى انتقل لجوارك.

لم يرد، أعرف الطريق طويل والمنزل خال، زوجي سافر وابنتي عند أمي، أغالب الخوف ونحن نقترب من المنزل أشعر بالعبء لا أحس بانزعاج فقد أخذت على نفسي اقتحام التجربة بأمانة وعلي البحث عن التركيز المطلوب بصرف النظر عن كل شيء.

قال: نعم.

قلت: حتى تسمع صوتي ونصل.

توقف عند محطة بنزين فترجلت ودخلت البقالة وشريت قنينتي عصير وعدت جلست في المقعد الأمامي، هو اللجة والأبهة وأنا الوردة الكاملة الشذى، ووصلنا تريث حتى افتح الباب تمهلت أبحث عن المفاتيح ترجل ووقف بجواري.

قال: ألا يوجد أحد؟

قلت: نعم.

قال: قد تكون هي الساعة.

قلت: تماما كالحياة زائفة.

وأنا أدخل المفتاح في فتحته أمسكت كفه بكفي تساعدني على إدارته، ولما انفتح الباب سبقني داخلا، أضاء النور وهم بالخروج دعوته للتريث، أحضرت من ثلاجة غرفة النوم الصغيرة علب مشروب غازي.

رن هاتفه، وسمعته يغادر الغرفة، ويقول: إنه في الطريق، نمت كما لم أنم منذ شعرت بوجودي.

هاتفي مليء بالاتصالات والرسائل، زوجي يعتذر عن العودة فقد يحتاج العمل ليوم آخر وصديقتي تعتذر عن اتصالها لسفرها المفاجئ برفقة والدها لحضور مناسبة عائلية في جدة حيث سبقتهم والدتها، ومديرتي في العمل تكلفني بمراقبة الدوام لأنها سوف تغيب لظرف عائلي، وصديقتي الجديدة تقول في رسالتها هل مزقك؟ وعدد من علامات الاستفهام.

في المكتب تخيلت أن المكان أكثر بهجة وضياء، عجزت عن تفسيره، وفي المساء وصديقتي الجديدة تدعك كفي بحثا عن الإمداد والإلهام وقد ارتفعت ببصيرتها فوق المكان والزمان بمشاهدة الحياة الأبدية بتجلي نعيم السر الإلهي. وتستنشق رائحتي تحثني على الحديث عن تجربتي مع زوجها، كانت أكثر نشوة وألقاً وأنا أحتضنها مدللة على أن التجربة نادرة.

تأخر زوجي لليوم الثالث هاتفه مغلق، في الخامسة عصرا أخي وأمي عند الباب توجست الشر زوجي تعرض لحادث سير وهو بمستشفى حكومي في العناية الفائقة معالمه تغيبها أربطة وأجهزة تنفس صناعي.

انتقلت إلى المنزل القديم عدت لغرفتي المغلقة فتحت كتبي وكراسات الدراسة وعبث أيام التخرج من الجامعة، ابنتي في رعاية والدتي، السائق وعاملة المنزل تبدلت مسئوليتهما فالسائق مع زوجي بالمستشفى وتغيبي عن العمل المؤقت، جاء مع انقطاع صوت رفيقتي المطعم.

صديقة الطفولة ومرحلة اكتشاف الجسد، لم تعد تتحدث عن حبيبها الذي توقفت اتصالاته مع نهاية الشهر الثالث على انتقال وظيفته من الخارجية الى دبلوماسي في أقصى الشرق، كما أنها وهي تزورني تشعرني بأني ابتعدت عنها ولمحت أني لم أدعها إلى غرفتي التي تحتضن صبوتنا.

أشياء كثيرة تبدلت لم أعد أدركها ولم أهتم بعناية شقيقي بملبسه وحرصه على خدمتي وهو يقترب أكثر من صديقتي وجارتنا القديمة التي يعرفها طفلا وفتى تمازحه وتلاحقه في ممرات الدار وهو يختلس النظر لمعرفة ما يدور بيننا حتى تخرجنا من الجامعة وانتقال أسرتها إلى شمال الرياض وتأخر زواجها وقدرتها على إقناع أسرتها بفكرها.

ذات مساء وقد أدركت أن زوجي يموت، عرفت أن أخي قابل صديقتي عندما حضرت لزيارتي أثناء قيامي ووالدتي بمعاودة زوجي، وتأخرنا في العودة لشراء بعض الحاجيات، اعتذر عن مشاركتنا الزيارة، كان ينتظرها عند المدخل وأخذها

إلى منزلي المغلق. غاب أخي في رحلة مع الأصدقاء هربا من مواجهتي.

توفى زوجي وجاءت صديقة المطعم وزوجها لمواساتنا، اكتشف أقاربي أن زوج صديقتي ابن أرملة من أسرتنا انقطعت أخبارها بعد أن هاجر زوجها للشمال كرجل أعمال وهناك توفى فتزوجت من مساعده وعامله الأثير وتربي ابنها مع أولادها وبناتها من زوجها الجديد.

صديقة المطعم قررت تطليق زوجها، إنما تنتظر اكتمال أوراق ابتعاثها للدراسة في لندن وهناك تنهي حياتها الزوجية، عرفت أنها تعاني من عيوب خلقية ناقشتها فلم تقتنع.

بعد أعوام خمسة على رحيل زوجي ابنتي في الثامنة وأمي العجوز النحيلة أنهكها المرض، وأخي في رحلة تعليمية لمدة أربعة أعوام تبقى عليها عام، تطور عملي فأصبحت مديرة شؤون العاملين في إدارتي المرتبطة بوزارة الشؤون الاجتماعية، ركضي مع صديقاتي لم يتجاوز اللحظة التي غفل عنها الزمن،

مما ورثت من تركة زوجي المنزل الذي شكلني كزوجة، واختارني كأم لطفلة يضحك لها القمر، تتنقل بود من أحضاني إلى حدب أسرة والدها، لم يغامر أحد منهم في التدخل لأخذها أو إرغامي على الزواج من أحد إخوته.

وفي العام الخامس جاء زوج صديقتي المبتعثة للدراسة في لندن يخبر أقاربي أنه طلقها وأن أمه تبحث له عن زوجة من أقربائها، يدرك أن هناك لغطاً يتعلق بوالده الذي تزوجته أمه ذات الأسرة المعروفة ورحيلها بعيدا لتعيش خيارها بحس المسؤول، فكونت شراكتها الأسرية شركة تجارية نمت كمؤثرة في المقاولات المعمارية والتجارة، كان والده أجيرا عند أسرة والدته مجهول النسب، حصل بموجب إجراء خاص على الهوية الوطنية وكلله بزواجه من الابنة الوحيدة لرجل الأعمال ذائع الصيت في الرياض والكويت.

كنت الزوجة التي يبحث عنها، جاء صوته عبر الهاتف تحدث كثيرا لم يتطرق إلى لقاء الاختبار الذي اندفع فيه تحقيقا لمؤامرة

أعددتها مع زوجته، القرارات التي تنتظرني نابعة من إرادتي وسعادتي تقوم على إرادته الحرة، وأنا لا أملك أي سلطة عليه، شعرت أنه يعرف عني كثيراً.

لما ناقشت والدتي لم تعترض، المرض لم يترك لها مساحة أكبر للنقاش، أخي المسافر يرى أنني أملك قراري خالي الذي كثرت زياراته لمتابعة أمي صحيا يعارض، أما أقارب والدي فهم مشغولون بخطاب ديني جديد أعادهم للواجهة.

وجاء صوت صديقتي من لندن أخبرتها ضحكت قالت: إنها في سلام مع نفسها، وعادت لها تلك البهجة المفعمة بالرقة والحنو متيقظة تسعى للحصول على إقامة دائمة في لندن، فقد تحققت رغبتها في نيل الدرجة العلمية، وأنها تمتلك سيارة تقودها بنفسها، وتعمل في مدرسة خاصة كمعلمة لغات شرقية، والأهم أنها تعيش مغامرة جديدة مع أسيوي مهاجر من أسرة ثرية يحمل جوازاً بريطانياً.

دعاني لتناول العشاء في مطعم عائلي ترددت خوفا من هوس رقابي تقمص الرياض، تتناقل الصحف أحداثه بين شاجب ومؤيد، المرأة والمجتمع نقاطه المحركة، احتفظ بدفتر العائلة الخاص بزوجي لوجود اسم ابنتي فيه، إضافة لبطاقة هويتي الوطنية، مع صور لدفتر العائلة قديمة بين ما تبقى من ذاكرتي.

وفي المرة الثانية بعد تناول العشاء، قال: هل تقبلين بي زوجا؟

قلـت: نعم.

قال: حتى الممات؟

قلت: حتى الممات.

رتب كل شيء جاء لمنزلنا مع أحد إخوته من أمه، وحضر والدي من منزله الثاني برفقة السائق، كتب مأذون الأنكحة العقد وقعته ووقعه ووقع والدي كولي أمري وأخوه كشاهد والشاهد الثاني كان سائق والدي.

انثيال بوح

بعد أن قلبنا ألبوم الصور اخترنا ثلاثا، ثم طالبنا الرجل الأسمر الأصلع صاحب الكرش والبنطال الأسود والجزمة اللامعة ذات الرباط بعرض بضاعته من النساء، كشباب مازلنا عزاباً ونبحث عن اللذة.

نحن في برنامج عمل خارج مدينتنا الصغيرة المندسة في ثنايا الجبال، حسب طلب إدارتنا لتطوير قدراتنا العملية يستغرق أياماً خمسة، والاكتشاف يجعلنا نتجول بدون وعي في الشوارع الفارعة والأسواق التي تعج بالمرتادين من كل الأجناس ثم نجلس في مقهى خارج المدينة الكبيرة التي لا تنام، حتى ساعة متأخرة من الليل.

جاءت خيار الأول فلحق بها، وتأخر خيار الثاني فوجد البديل بيضاء البشرة في حمرة ناعمة الشعر ردفها لا يتوقف عن الاهتزاز، تبقيت ارتقب لتدخل طفلة في العاشرة على حظ

عظيم من الجمال، شيء شدني فيها وأنا أتفحص جسدها الممتلئ، تناثر شعرها الأشقر القصير على جبينها، صدرها غض وذراعيها العاريين يلمعان بياضا، عنقها طويل زرقاء العينين، ثوبها القصير لا يغطي ركبتيها، عرف الرجل من صمتي وهو يكتشف بحدسه أنها خطوتي الأولى الحقيقية وأنها اختياري فغادر الغرفة.

سمعت قرعاً خفيفاً على الباب، شدتني بعنف وقوة قبل أن تنهض، فتحت الباب واختفت.

ونحن في مطعم الفندق الذي نقيم فيه ويستضيف ندوات مؤسسة التدريب تحدث مرافقي عن تجربتنا، بعد انتهاء جلسة الصباح في اليوم الثالث اتفقنا على معاودة مغامرة اليوم الأول، وفكرنا في إشكالية لقاء الرجل.

توقف قلقنا ونحن نجده يتحرك ضمن فريق العمل الذي ينسق برنامج زيارة منشأة صناعية، أنكر معرفتنا فلحق به

أحدنا إلى سيارته وأقنعه برغبتنا في تجربة جديدة تتفق مع نهاية البرنامج وتكون احتفالية للعودة للمعتاد.

أصريت بسذاجة وعناد على لقاء فتاة الموعد السابق ورفضت كل الحلول، فجلست وحيدا في صالة الاستقبال في الفندق أمضي الوقت في متابعة الوجوه والإنصات لحديث خاطف بين بعض الجلوس ونداء لا يشكل أي معرفة.

في العاشرة ليلا لمحتها تدخل من باب الفندق طفلتي الشهية، تلفتت حولها ولما شاهدتني سارت غير مبالية بالآخرين، نهضت مرتبكا والعرق ينضح من مسامي، وجاء الرجل تتبعاني بنظرهم وأنا أدخل المصعد.

قال أحد مرافقي: إنه نام في فراش امرأة تقيم في غرفة تجاور غرفته، وجدها لما عاد في الساعة الحادية عشرة ليلا تعالج باب غرفتها فساعدها على فتح الباب، وعرف أن زوجها المريض حصل على أمر حكومي للعلاج فرافقته مستأذنة من عملها

وتركت أطفالها عند والدتها، يراجع الطبيب منذ يومين وهو الآن يرقد بالمستشفى لإكمال الفحوص.

لما عدت للغرفة بعد الظهر وجدتها تجلس أمام التلفزيون، استحمت، وطلبت غداء، في الخامسة غادر تني.

وفي العاشرة ليلا انتهى البرنامج التدريبي بحفل عشاء، المرافق الثاني تغيب عن جلسة الثامنة ليلا تسلمت نيابة عنه وثيقته التي تمنحه التميز بين المشاركين ودرع من الشركة الراعية للبرنامج، ومعه تأخرت مغادرتنا للفندق حتى الرابعة صباحا.

انثال حديثنا في باحة قصر حفلات استأجرته بمناسبة عقد قران ابني، مجموعة من الأصدقاء والأقارب وقد تناثر الشيب فينا وسكنت الكهولة أجسامنا، عن لحظات دفنها الزمن العم حمدان مع إتقانه لعب البلوت من أرباب الخيال الجامح صاحب محل لبيع قطع غيار السيارات، زفر متنهدا وقال: حتى يقلق الصمت المخيم علينا متابعين صراع أربعة تقادم بهم الزمن، تنطلق بينهم همهمة احتجاج وضحكة انتصار عند كل

جولة من اللعب، الدنيا أمامك سدح مدح وابنه الفتى يطالبه بالمغادرة فالليل انتصف، ضحكنا كان متوقد الذهن نخرت العلل جسده حكاياته طرائف ونتحرج من تلميحاته القاسية التي نثور معها في البداية ثم تتسرب السكينة إلى أعماقنا بسبب صمته وتحديقه المركز على وجه المنفعل وبسمة صغيرة ترف على محياه بود، كانت تشاركنا في وجودها لحظات فرح وأيام حزن أسود تجاوز صفات الألم الذي اعتدناه في مدينتنا التي في الصيف تصبح أرصفتها دواوين سمر ومجالس تأمل، وكلما ضمرت الحياة فيها تنبعث فجأة معلنة عن استمرارها، كما أنها لا تكتمل إلا إذا انبثق فيها مجنون عريق يكون له دور طريف ومؤثر في حياتها وحديث الناس، وشيخ يدعي أنه سيد العارفين وقد انشغل أهلها بعلك الذاكرة.

جاء ابن ابنتي يستحثني على القيام حتى ألج إلى قسم النساء من قصر الأفراح، لأقف بجوار خالة العريس مع باقي أفراد

الأسرة، رفيقا الذاكرة يلعبان البلوت منتظرين هذه اللحظة، نهض أحدهم لاحقا بي فقد كانت العروس ابنته.

العنقاء

1

صالح أكبر الأبناء عرف بصمته وغموضه، والقيم على مناشط والده الزراعية والتجارية، كما أنه كاتب رئيس المركز الذي اتخذ من القرية النائمة في حضن الصحراء وبين جبال بركانية تطامنت قممها حتى تتفجر ينابيع المياه وتكثر المزارع وأحراش المراعي مملكة خاصة، تزوج صالح ابنة عمه شيخ القبيلة التي تنتسب لها أسرته معيدا العلاقة المنقطعة داخل الأسرة إلى تلاحمها، بينما كانت زوجة والده الأخيرة تنمي حس المواجهة في أولادها الجيل الثالث في الأسرة لمقاومة سيطرة صالح على مقدرات العائلة.

بينما الجيل الثاني انشغل بتكوين ذاته بعيدا عن سطوة الأسرة وقيم الجماعة وبقي صالح ممثل الجيل الأول مكشوفا أمام مطالب زوجات والده وحاجات إخوانه وأمهاتهم وقد تم تزويج شقيقته لقريب يقيم خارج القرية، كما أن زوجته لم

تحمل رغم مرور عشر سنوات على اقترانه بها لم يترك خلالها عرافا أو طبيبا وامتلأ المنزل بالرقى، وعوضت العقم بأن وجهته بمساعدة والدها إلى تولى مهام هامة خارج الأسرة وعند أهل القرية.

2

حسناء، بدوية تعلمت من الصحراء حركتها وأخذت من الرمال اللون الذهبي ومن والدتها وأهل خيام الشعر من البدو الرحل بحثا عن الماء والكلأ، كيف تزرع البهجة فيمن حولها ولما توقفت السماء عن إنزال المطر اقتربت الخيام من القرية وتوزع الرجال للعمل في المزارع والأسواق فالتحق والدها بالمزرعة الكبيرة التي يملكها والد صالح يشرف على طلمبات المياه ويوصل منتج المزرعة من الحليب والخضار للمنزل.

في حفل عشاء نهاية الشهر الذي معه يتم صرف رواتب العمال ومعرفة حاجات المزرعة التقى صالح حسناء؛ كانت تمرض والدتها، لفت نظره جمالها وطلب نقل المريضة إلى مستوصف القرية وهناك اقترب أكثر منها بعد قيام الطبيب بتحويل المريضة إلى المستشفى في الدوادمي لمزيد من الفحوص.

وفي غداء خاص بمناسبة شفاء المريضة خطب صالح حسناء مما أغضب زوجته التي هجرت الدار ولم يعترض والده عندما

عرف بالأمر، إنما شجعه وقدم له مساعدة جزلة أثناء حفل الزواج عبارة عن سكن مستقل وتنازل له عن دخل محلات تجارية في سوق القرية.

لما حملت حسناء رحل صالح إلى مدينة الدوادمي حتى تكون بجوار المستشفى وترك القرية بما فيها للآخرين؛ ولحقت به زوجته الأولى بعد وفاة والدها وتقاتل إخوتها الذكور على التركة فكان أن قام صالح بطلب المساعدة من والده الذي دعمه ماليا حتى اشترى منزلا واسعا وعوضه عن المحلات التجارية في القرية بمبلغ مجز معه بدأ صالح تجارته الجديدة في مجال الأثاث المنزلي بناء على نصيحة والد حسناء.

3

أنا سهج تخلقت في بطن أمي بهدوء وسكينة، لم يغب يوما صوت أبي عن سمعي حتى وأمي تفحص حملها في العيادة الخاصة بقسم النساء في مستشفى الدوادمي، وأنا في الثامنة من عمري توفيت والدتي، عَثَرت عليها زوجة أبي ميتة في الفراش؛ كنت في المدرسة ووالدي مسافر إلى الرياض لعقد صفقة تجارية جديدة، زوجة أبي جاءت وأخذتني من المدرسة، والدي قطع رحلته؛ وعاد ارتبك الطبيب في تحديد الوفاة، وتأخر دفنها. تدخل جدي وبعض أفراد الأسرة فتوقف البحث عن أسباب الوفاة وتم دفن أمي في اليوم العاشر على وفاتها في مقبرة القرية.

تولت زوجة أبي شؤوني فكانت تنام في فراشي إذا سافر والدي. اعتدت أنفاسها والتصاق جسدها بجسدي. تتدخل في اختيار ملابسي وتتابع استذكاري للدروس وتحث والدي على إحضار معلمين لمساعدتي في تعديل درجاتي لبعض

الدروس، كانت تسميني "علي " بسبب شعر رأسي القصير وشغبي الغلامي، تقبل والدي الأمر لرغبة في داخله لم تتحقق.

تباعدت زيارتي للقرية، وكان والدي يقيم حفلات عشاء لجدي وأعمامي عند زيارتهم لنا، يدعو لها الجيران والأصدقاء، وعندما ينصرف الضيوف يرتفع حوارهم فأعرف أن والدي لم يعد له مكان في الأسرة.

عندما حصلت على الثانوية العامة قدم والدي أوراقي للجامعة في الرياض وفي جدة، فكان أن قبلتني جامعة جدة في التخصص الذي أرغب بينما كان قبول جامعة الرياض في قسم آخر على ضوء درجاتي في بعض المواد.

أقنعت والدي بجامعة جدة وأن للطلاب المغتربين سكنا آمنا.

جاء الفصل الدراسي الأول مرتبكا، معه كثر تردد والدي إلى جدة، ومعها أغراه أحد تجار الأدوات المنزلية تعرف عليه بالشراكة. وفي حفل عشاء أقامه التاجر في منزله لوالدي

للتعرف على بعض رجال الأعمال كان قرار والدي الانتقال إلى جدة.

داخل الجامعة مارست حقوقي كاملة بين الزميلات وهيئة التدريس وفي قاعات وممرات الكلية. في السكن بقيت أياماً وحيدة حتى جاءت ميسون، سمراء ممتلئة تتجرد من ملابسها في الغرفة غير مبالية بوجودي؛ تفتح باب الحمام وأنا أستحم بدعوى أخذ منشفتها أو معجون الأسنان.

انتقل والدي إلى جدة، وفي اليوم الثالث سافرت زوجته للقرية حتى تقنع إخوتها بإعطائها بعض النقود من تركة والدها لمساعدة أبي، أحضرنا خادمة وسائقا يقوم بتوصيلي للجامعة، والدي شعر بالحرية أكثر فأخذ يفكر في مستقبلي، لم تنقطع زوجة والدي عن نومها في فراشي عندما يسافر والدي ولم تهمل مناداتي باسم " علي " عندما تراني ألبس بيجامة رجالية مخططة داخل المنزل وعند الخروج للسوق تكون أهم مشترياتي بنطلونات جينز وشورتات ألبسها عندما نقرر قضاء

بعض الوقت في شاليه على البحر قام والدي وبعض أصدقائه باستئجاره للتنزه.

لما تخرجت من الجامعة عملت معلمة في مدرسة قرية في جنوب جدة تبعد مئة كيلو متر؛ رفض والدي هذا الخيار، وأمام إصراري على العمل تمكن من تبديلها بمدرسة تبعد خمسة وأربعين كيلو متر في الشمال.

في المدرسة وفي الطريق الصباحي والمسائي اكتشفت أن "علي" ترسب في أعماقي وأنا أجد إحداهن تحتضن كفي في خلسة من مرافقاتنا في السيارة.

ونحن في السيارة عائدين من المستشفى الذي ترقد فيه زوجته، قال أبي: إن شريكه عامر يرغب بالزواج مني؛ كانت المكاشفة متوقعه من أبي ولكن الوقت غير مناسب، فشريك أبي يغرقني بالهدايا كما أنه يطري جمالي إذا قابلته في مناسباتنا الخاصة فوالدي يعتبره أحد أفراد الأسرة.

تذكرت أنني عندما كنت في الثانوية أن زميلة من أقرباء والدي، قالت في الفصل: أني لقيطة بعد شجار على أمر يخص الأسرة، لم أناقش أبي حينها وبكيت في غرفتي وأنا استعيد نظرات طالبات الفصل تأخرت في تبديل ملابسي وبين دموعي جاءت زوجة والدي؛ ضمتني إلى صدرها ومررت كفها على رأسي فأخذت أشكو لها اتهام قريبتي؛ قبلت جبيني وأغلقت فمي بكفها .

نسيت الأمر وها أنا أتذكر ذلك وأبي يسألني رأيي في طلب شريكه، وعلاقتنا المتوترة بأفراد الأسرة؛ فأبي ترك كل شيء ليتفرغ لي ويتبع نجاحي وها هو يسعى لتثبيت الأمان فيما تبقى من طريق. جاء زواجي من شريك أبي فخما وفي فندق فاخر في لندن.

عرفت أن زوجة زوجي التي ترقد في المستشفى منذ عام توفيت ونحن في طريق عودتنا من رحلة شهر العسل؛ ولما وصلنا، كان ابناه الفتيان في منزل خالهم بعد هجرهم لمنزل

والدهم، ومع الوقت اكتشف والدي أن ثروة شريكه مصدرها أموال زوجته المتوفاة وأن هناك قضية في المحكمة تطالب زوجي برد الأشياء التي استولى عليها.

4

السامري، بعالمه الخاص وسياقاته المعرفية؛ همس في أذني باسمي السري " طيف " بينما كنت أتنقل كفراشة في أحد المتاجر، لاختار المناسب من القماش لتفصيله لحفل نهاية العام الدراسي بالمدرسة التي أعمل بها. جاء صوته يطري نوع القماش؛ حدقت فيه وأسدلت الخمار على وجهي. تبسم كانت بسمته تيارا كهربائيا سرت لذعته في جسدي؛ واتجه معي إلى قسم العطور اختار لي مجموعة من الروائح ثم ترك بطاقة تحمل اسمه ورقم هاتفه واختفى.

انشغلت بمرض والدي؛ ترقد البطاقة في حقيبة يدي وأنا أقف وحيدة أمام غرفة العناية الفائقة التي يرقد فيها والدي؛ زوجي مسافر وزوجة أبي أصابها مرض والدي فمرضت، وتم ترقيدها في إحدى غرف المستشفى. في المنزل وأمام قلق الخادمتين على والدي برز الرقم أكثر؛ جاء صوته مطمئنا؛

عاتبني على تأخري في الاتصال؛ شكوت له مرض والدي فسكن قلقي.

زوجي أصبح وحيدا بسبب مرض والدي فهجر المتجر وحبس نفسه في غرفة بفناء المنزل؛ يدخن ويراجع أوراقه وحساباته؛ كنت أجلس معه أقلب الأوراق وألطف ألمي، ثم أدخل غرفتي للحديث بالهاتف مع سامر حتى موعد نومي.

بعد ثلاث سنوات مع القضاء والشرطة ووالدي في المستشفى تدخل أهل الخير بين زوجي وأقارب زوجته السابقة، وجرى حل المشكلة المالية؛ نصحنا الأطباء بنقل والدي للمنزل مع تجهيز غرفة طبية، وأعارنا المستشفى ممرضه للمتابعة؛ حضر بعض إخوة أبي للمعاينة وارتفع صوتهم فطردتهم زوجة أبي. وفي تلك الليلة نمت في فراشها وشعرت أن روحها الطيبة تطوقني.

في مساء يوم وبعد مكاشفة ليلية كنت أجلس مع سامر في مقعد على البحر الممتد أمامنا نلاحق موجه المتكسر على

صخور الشاطئ ونلعق الآيس كريم؛ حديثه الحالم ينزعني من همومي؛ تقاسيم وجهه تزرع الأمان وهو يضم كفي بيده اليمنى، هجرني النوم فخرجت إلى الفناء؛ لم أجد زوجي في الغرفة جلست أقلب الأوراق المتناثرة على الأرض كشف حسابات البنك يفضح التلاعب في المستندات؛ شعرت بالتعب وعرفت أنه رحل؛ تركت كل شيء وعدت لغرفتي.

في منزل والدي المغلق بعد وفاته ورحيل زوجته إلى أهلها حتى يبت القضاء في شكوى إخوة أبي لحصر نصيبه في الشركة ليتم توزيع الإرث؛ كان لقاء الحقيقة. مع غياب الشمس أوصلني السائق إلى السوق وجلست على مقعد انتظار في ساحة المحلات التجارية أتأمل تفاصيل المرتادين وأجمع تبعثري، ولما لمحته نهضت تخللت أصابعه أصابعي فتح باب السيارة ولما جلست اتجه للباب الآخر؛ طلبت منه الذهاب إلى منزل والدي.

5

أمي من النور (هكذا عرفت) اعتادت التجول في أرجاء الأرض متمسكة بالتقاليد وطراز المعيشة الحرة التي معها يأنف الغجري العمل؛ فهي الحسناء التي باعت إخوتها الأربعة للشيطان حتى تفوز بقلب حبيبها فكان موتها الغريب عندما انتقل بها والدي من فضاء القرية الرحب إلى المدينة لتعيش بين جدران الأسمنت مقيدة عندها فاضت روحها الراقدة لتعود إلى التحليق .

ومن هنا لم أجد أحداً من أقاربها حولي، ولما شعرت أني سيدة نفسي أتجول كما أشاء بعد انشغال زوجي بمشاكله مع أهل زوجته السابقة وأقارب والدي؛ حضر خال والدتي الخضر الذي أصل فضاء الحرية في فكري .

كنت مع ثلة من الصديقات نتناول العشاء في مطعم فندق أوراق النرجس الأربع وخرير الماء ينساب مع صوت الموسيقى متجاوزا همس المرتادين، جاء يحمل دلة القهوة،

صب لي فنجانا وترك مرافقاتي؛ أخذت أتبعه بنظري وهو يتنقل بين الطاولات حتى اختفى.

شيء في داخلي؛ تخلق معه توهمي وهو يغادر المطعم كحصان رافعا ذيله متحفزا، تركت الطاولة ولحقت به كان يجلس في صالة الاستقبال؛ نهض لما لمحني أمسك بكفي وسحبني إلى مكان منزو؛ أخرج من ثنايا ثوبه الفضفاض مظروفا أبيض تركه على الطاولة؛ تحدث كثيرا عن أمي.

بناء على طلبه لم أفتح المظروف حتى ندخل دار والدي؛ في السيارة جلس بجواري بالمقعد الخلفي رائحته شذية وثوبه الفضفاض حريري الملمس عقاله الأسود السميك يلمع كلما مررنا بقرب شعلة نور ووجهه المصبوغ بالحمرة متغضن بأخاديد الزمان، سبقني إلى الداخل ليشعل الضوء جلسنا متقابلين في غرفة الجلوس؛ روح أمي تحلق في فضاء الغرفة. أخرج المظروف من حقيبة يدي وفك الرباط؛ كان بداخله

أوراق ثلاث؛ الأولى عقد زواج أمي، والثانية شهادة ميلادي، والثالثة وثيقة تملك لمنزل في حي فقير باسمي.

عرفت أنه يقيم في المنزل وطلب مني مرافقته حتى أعرف موقعه؛ أما شهادة ميلادي ووثيقة زواج والدي التي تحمل توقيع جدي. مستندات تدين أقارب والدي في إخراجهم مشهدا لم يبروا فيه قسمهم في المحكمة يحصر ورثة أبي في إخوته، وأنه مات ولم يخلف، وشهادة ميلادي تحدد موقعي في عشيرة أمي، وأني أصبحت ملكة جماعتنا التي تناثر أفرادها بسبب زواج والدتي من غريب؛ وحتى أضلل الأرواح الشريرة التي تلاحقهم.

الهنـــديـــة

4 شعبان

وجدت اليوم دافعاً قوياً لأن أستعيد الذكرى التي نسيتها وأنا أطالع الدموع في مقلتي جارتنا الهندية المتجهة إلى الغرب تجر خلفها أطفالها الثلاثة بعد أن قام زوجها بضربها. لا أدري السبب، لكن عندما قالت شقيقاتي الصغيرات جارتنا المسكينة تبكي في الشارع والأولاد يلتفون حولها، سألت نفسي: لماذا؟

ولكن قبل النهاية أخذت أفكر: كيف ترحل؟ ومن أين تجد قوتاً لأطفالها، بل أين تأوي والشتاء يطرق الأبواب في إلحاح؟ كان ذلك في عام 1379هجرية بالتقريب، وكنت لا أقيم ما حولي لولا حكايات جدتي التي أفتقدها اليوم.

25 جمادى 1379هـ

طرقت بابنا هندية طويلة القامة تحمل على رأسها صندوقاً مليئاً بزجاجات العطور تبحث عن مشتر. واستقبلتها جدتي ذلك الصباح بنفس مفتوحة وتطمئن الهندية وتأخذ في سرد حكايتها. لقد وصلت الطائف مع بعض أقربائها بعد رحيل من الهند دام أكثر من سنة تضاءل أثناءه حجم الجماعة إلى أقل من النصف.

وكان ذلك بقصد الحج وزيارة المدينة، ولكن كل شيء تغير بعد الوصول. ماتت والدتها ووجدت في أسرة تشتغل عندها ما يحثها على البقاء. وتفرقت الجماعة ولم تبق غير أسرة صغيرة مكونة من عجوز وابنها الذي أخذ يجمع الأخشاب لصنع الصناديق والطاولات الصغيرة وبيعها بمبالغ زهيدة. ولكن حدث شيء لم تكن تتوقعه. طردتها الأسرة التي تعمل عندها لتعود إلى العجوز التي تعرفها منذ كانت هناك مترقبة شيئاً عجيباً، مكتفية بالتقاط قطع القماش القديمة من الشوارع

وما يجود به الجيران على العجوز وعليها من ثياب بالية ممزقة لتصنع منها أكياساً صغيرة تبيعها إلى أصحاب الدكاكين.

8 شوال

صدرت الموافقة المرتقبة لنرحل إلى الرياض، لقد انتقل عمل والدي إلى هناك، بعد أن رفع إلى درجة مفتش، ليعمل بالوزارة، وهناك اندمجنا بمجتمعنا الجديد مخلفين وراءنا جدتي التي رفضت مشاركتنا السفر راغبة في البقاء مع ابنتها – عمتي – التي كانت على وشك الوضع.

أول محرم

الأخبار تقول: هناك أمطار، جدتي تبعث لنا بتحياتها، الطفل يموت بعد أن تعرض لهواء شديد، ويذكرني هذا بشيء وهو أني عندما أكون بقرب نافذة سيارتنا المنطلقة بأقصى سرعتها أشعر أني بحاجة إلى من يسعفني وأن الاختناق يشل جسمي.

8 ربيع ثاني 86

والدة أبي تنتقل إلى رحمة الله وها نحن نشد الرحال إلى الطائف. كل شيء يسير حسب ترتيبه وخيط من الذكريات يمر بخاطري عن صاحباتي، عن جيراننا، عن المنازل الصغيرة. وجدتي لا تمل التحدث، تروي لي ولإخوتي ذكريات شبابها في القرية هناك فوق الجبل مع الأغنام والسماء الحانية التي تمد يدها لاحتضان أبناء رفيقتها الأزلية – الأرض – في مسيرة دائبة لا تعرف الملل ولا تخشى النهاية المرتقبة.

25 ربيع الثاني

أخذ الاضطراب يلفنا، علينا أن نعود بعد أن انتهت فترة الحزن والعزاء إلى الرياض، وعلي أن أجتهدَ وإخواتي لنعوض ما فاتنا من دروس، والدتي تبكي ولا أدري لماذا؟! لقد عاودتها ذكريات سحيقة مرت بها في بداية حياتها الزوجية، وجدتي

تلفها بالحنان والعناية النادرين واللذين فقدتهما منذ الطفولة حيث توفيت والدتها وهي بعد لم تكمل الأربعين.

25 رمضان 88

وصل والدي إلى سن التقاعد منذ أيام، ومراجعاته لم تفد رغم استسلام والدتي ومحاولتها في إقناع والدي بأن مهمته انتهت وعليه أن يفسح المجال أمام الآخرين ، وذوي الخبرة الجديدة حتى لا يكون هناك تأخير في المسيرة الكبرى إلى الأفضل ، ويرضى وتقرر العودة إلى الطائف وها نحن نعود ما عدا أخي الذي يدرس في الجامعة، والذي قرر مشاركة بعض زملائه للقيام برحلة إلى المنطقة الشرقية وبعض إمارات الخليج العربي للتزود بالمعرفة والترفيه، نشاهد أثاث دارنا يبتعد عن ناظرنا في رحلة نصل نحن قبل نهايتها لنستقبله ولنعيد توزيعه في غرف منزلنا القديم.

7 محرم 89

الصيف يقرع الأبواب والأحاديث تدور حول المصطافين، وأشياء أخرى، وأنا أستعيد أشياء كثيرة من ذكرياتي وإن نسيت الكثير، لكن هناك وهنا أقابل وجوهاً مألوفة لا أدري عن أصحابها شيئاً، إنما أجد في نفسي دافعاً يقول: إني كنت أعرف أصحاب هذه الملامح، وإني قد عشت لحظات أتفرس بها وتتفرس بي وتضحك.

5 صفر

وجدتها من بين الوجوه التي حولي، طويلة نحيلة، تحمل صندوق العطور فوق رأسها لا صدر لها تمشي معتدلة القامة، ولكن وراءها ثلاثة أطفال. إنها الهندية – صاحبة جدتي – ولم تعرفني ولكنها تعرف عمتي حيث إن منزلها لا يبعد كثيراً عن حينا، تدور باحثة عن مشتر.

30 ربيع الأول

عرفت حكاية غريبة اليوم، ولكن لا أدري ما صحتها؟ هناك جار منزله يقابل منزلنا، منذ أن وُجِدتُ وأنا أعرف أنه لا شغل عنده ولا عمل سوى البحث عن مقاول تعهد ببناء منزل له، ولكن عندما أنهوا بعض مراحل الهدم اختلفوا وهنا فر المقاول. ومنذ ذلك العهد الذي أجهله وهو يبحث حتى آخر الليل يقف في الزوايا وعند الأبواب ينتصب. أتت الشرطة لأخذه بعد أن حاول ابتزاز جار له بكشف سيرة زوجته السيئة.

أول رجب

الهندية تذكرني، تشدني إلى الماضي لأبحث في أحاديث من حولي عن شيء عنها، ولكن لا شيء، لقد تزوجت ابن العجوز. ولكن ابنتها الكبيرة مجهولة الأب رغم معرفة الجميع بأن زوجها يدعي بنوتها، ولكنها لا تهتم بشيء سوى التطلع

والتفرس في وجهي لعلها تبحث عن ماضيها العتيد وذكريات شبابها.

15 رجب

حضر أخي الكبير من الرياض ليبقى عندنا أياماً ثم يعود، ووالدتي تحاول إقناعه بالزواج؛ لأنها تخشى عليه، وهو وحيد من قرناء السوء. ولكن هناك شيئاً ضعيفاً وجدته في حركاته عندما يشاهد الهندية وبحثت عن السبب لكن ذاكرتي لم تسعفني بشيء، ووجدته ذات مساء يتطلع في شيء من الخوف إلى الهندية التي انتصبت أمامه وفي يدها ابنتها الكبرى، ولم أسمع سوى أني لا أعرفك، لا أعرفك؛ ولكنها تصرُّ وتجادل بصمت ثم تتفوه إنها ابنتك، أنت السبب في وجودها، وعندما اقتربت وجدها فرصة ليهرب، ليرحل في مساء ذلك اليوم.

17 رجب

وضحت الحقيقة؛ عَرَفتُ اليوم من حديث دار خلسة بين عمتي والهندية بأن أخي هو الذي أغواها وهي بعد فتاة تعمل لدى أحد معارف الأسرة. كانت في المطبخ تعد بعض متطلبات الوليمة، وفجأة انتصب أمامها، وبعدها لقيته كثيراً حتى إنه أخذ يزورها في غفلة من الجميع.

2 شعبان

بنات الهندية الثلاث يحضرن كل مساء للتفرج على التلفزيون عندنا، وأتفرس في البنت الكبيرة. أسألها عن اسمها وعن أمها وأبيها، وأنا أبحث في تقاسيم وجهها عن شيء يشبه أخي، ولكني لا أخرج بنتيجة. فهناك عوامل تتصارع في داخلي وترسم صوراً قاتمة، لا أدري ما لونها عن الحياة والفقر، وذلك السر الذي يقف أمام الجميع وتتحطم عليه القيم الإنسانية، والمثل التي لا توجد لها صورة حقيقية عند الكثيرين من ذوي

المبادئ المختلفة. وأشياء كثيرة نرسمها ونجهل إلى أين تصل بنا. ولكن كيف تورط أخي معها؟ هذا ما لا أعرفه.

3 شعبان

وصلت إلى شيء من الحقيقة بعد أن ضج رأسي بالأفكار والتناقضات، كانت تحمل كل مساء الطعام للعجوز وابنها الشاب. وكانت تنام بعض الليالي أثناء معاودة المرض لها، ومن هنا كانت البداية. لكنه تغير عليها ذات مساء عندما لم ترضخ لطلباته بأن تبحث عما هو أثمن من الطعام لدى أسيادها ووجدت في أخي طفولة وسذاجة تحتاج لشيء، وكانت تريد منه أن يقدم لها ثمناً لما تقدمه ولو كان مسروقاً، لا تشعر بالذنب، ولا تجد في ذلك العناء الكثير أو الخوف الذي قد يفضحها ذات مساء. أَقْنَعَت صديقها الهندي بالزواج بعد أن أخذت معالم الجريمة تتكون في أحشائها.

المـوت

عدت منذ أيام إلى مرتع صباي، وموطن أحلامي ولم أكن قد حددت كيف سأتدبر أمور غدي، وإن كنت أعلم أن والدتي سوف تتدبر كل شيء، حتى أمر إقامتي معها، فسوف تشرح كل شيء لزوجها، تفهمه بأن إقامتي لن تطول، وأن الأمور سوف تفرج عندما يشعر أصدقائي بعودتي.

وهكذا وجدتها فرصة، كنت أهز رأسي عند كل حديث بالموافقة ولا شيء أكثر من ذلك حتى عندما قالت والدتي: لقد طلبت مني جارتنا سعاد أن أخبرك بأنها ترغب منك تعليم بنتيها أمل وحنان.

هززت رأسي بالموافقة وبرحت الدار ودون أن أشعر قادتني خطاي حتى أوصلتني أخيراً أمام دار سينما صغيرة، كنت أحد روادها المدمنين عندما كنت طالباً في المرحلة المتوسطة والثانوية. وقفت كثيراً أتأمل الإعلانات الملصقة في الممر المؤدي إلى صالة العرض ثم خرجت وسرت بي قدماي في

الطرق والأسواق العامة، وأمام عيني وفي مخيلتي يتراقص شيء واحد هو غربتي والحال التي أنا بها، وطرأت في رأسي عشرات الأسئلة والافتراضات.

كنا بمفردنا لا أحد يجاورنا، وبينما نحن كذلك إذ قرعت سمعي أنّة مكتومة منبعثة من وراء الشجرة التي وراءها حاجياتنا فما كان مني إلا أن عدوت بسرعة لأرى، ورأيت فائقة ممددة على الأرض صفراء شاحبة كالأموات لا تكاد تستطيع حراكاً أو تنفساً وركعت بجانبها.

ووقفت ساعة جامداً مأخوذاً، أنظر إلى هذا كله، ثم أسرعت، أخذت أعدو ولكن كان الطريق طويلاً، والأشباح تتراقص أمامي تحجب عن الرؤيا تخنق حتى حركات يدي التي شلت فلم أعد أشعر بها.

كنت بطبيعة الحال لا أرغب إلا في عمل الشيء الذي يمكنه أن يجلب إلى نفسها السرور كنت أقول لها:

ـ لن أخطو خطوة واحدة قبل أن أحظى برضاك وموافقتك. فكل شيء سيان عندي طالما أني بقربك.

ولكي أكون عند حسن ظنها هجرت مدينتي. فقد أحيل والدها إلى التقاعد ولم يعد هناك رابط يدفعه للبقاء في الطائف. هجرت مدينتي عند أول رسالة وصلتني منها تاركاً مدرستي وكتبي، مع أنه لم يبق على اختبار الشهادة الثانوية سوى أسابيع معدودة.

وفي زحام الرياض وجدت عملاً بسيطا إذ لفت نظري في صحيفة اقتنيتها صدفة عنوان عن وظائف شاغرة. وللفور بدا لي أن الفرصة قد واتت على غير انتظار مرتقب حيث يكفي أن المتقدم يحمل شهادة الكفاءة المتوسطة مع بعض الإلمام بطبيعة العمل، وحالفني النجاح.

وسارعت إلى التلفون أزف لها توفيقي في إيجاد عمل مناسب، وكأني أزف لها تتويجي على العالم وحصولي على أشياء لا يتصورها العقل، ومن يومها كنت أحاول طاقتي أن أبدو

على أحسن ما يرام، لا أدري ما هو الدافع. ولكن هناك شيء داخلي يدفعني إلى ذلك، يدفعني إلى أن أبدي من نفسي خير صورة، وأن أكون في دائرة الضوء. ومرت الأيام سريعاً، كانت فائقة تملأ كل فراغ فيها.

ضحكتها الرنانة، حديثها الخلاب، اندفاعها السريع للموافقة على طلباتي، إذ إنها وحيدة أسرتها المكونة من أم وأب عجوزين وأربعة أبناء ترتيبها الثالث بالنسبة لميلادهم فالكل يعاملها معاملة صبي لا معاملة فتاة، ولهذا كان الاهتمام بها منحصراً في أن تبقى في المنزل ولا تهمل دروسها ومدرستها.

كانت جذلة وهي ترى اسمي مكتوباً في الصحف وتقرأ ما نشرت مرة وأخرى، ثم تطلب المزيد وفي عيد ميلادها، كانت هديتي بالإضافة إلى باقة الزهر قصاصة من صحيفة يومية بها مقطوعة شعرية تحمل اسمها بخط عريض، ولم تقل شيئاً، لم تعر ذلك انتباهاً. لم تهتم بقراءة القطعة بقدر ما حاولت

دفن شعورها باللامبالاة باستنشاق الزهرات والتساؤل عن مصدرها.

ولم أعر الأمر لحظتها أي اهتمام بل لم أقل شيئاً، فاكتفيت بذكر بعض أحلامي العريضة التي وضعتها نصب عيني.

واكتفت بهز رأسها فقط، وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد، وقبل ذلك اليوم بأربعة أشهر وعلى التحديد في أول السنة الجديدة فاتحتها بطلبي. قررت أخيراً الزواج، وعليها أن تمهد لكل شيء، حتى إذا قابلت والدها تكون مهمتي يسيرة ومبسطة.

وأخذت تتأملني على غير عادتها، تنبش جيوب ثوبي ملتهمة ما في الأوراق من أسطر. حاصرت ما في محفظتي من نقود، وتوقفت عند صورتها التي أهدتني إياها منذ بداية تعارفنا وأخذت تقرأ الإهداء. ووقفت عند توقيعها تلك الشخبطة التي عجزت عن إتقانها، قالت:

ـ إنه غامض أليس كذلك؟

وتوجت جملتها بتوقيع آخر، في الطرف الثاني من الصورة، وأخذت قلمي وخطت توقيعاً ثالثاً ربط بين التوقيعين السابقين، وإن كان أقل إتقاناً من سابقيه.

وعدت أدراجي وانطلقت وحيداً أفكر فيما سوف أقوله، وما يجب عليّ عمله وعدت متأخراً إلى المنزل الذي أستأجر به شقة صغيرة مكونة من غرفة ومطبخ وحمام، لقد كنت سعيداً. وألقيت نظرة سريعة اكتسحت كل ما حولي ثم استقرت أخيراً على الطاولة حيث تكدست بعض الكتب والصحف واصطدمت بقصاصات الصحيفة التي أخذت منها القصاصة المهداة والتي لا شك أنها جاءت بغير ما يرجى منها.

وماطلت فائقة، كانت تطلب مني التريث، بينما كانت تخفي قلقها وسر شحوبها عليّ مدعية أن سبب ذلك هو تفكيرها المتواصل فيما طلبت منها.

وذات يوم رن التلفون في مكتبي، كانت المتصلة، لم تقل شيئاً وإن كنت أشعر من نبرات صوتها أن في الأمر شيئاً، إنما

اكتفيت بتأكيدي على إلزامي بوعدي. وهو أخذها إلى أحد الأحراج المحيطة بالمدينة، حيث تمني نفسها بقضاء لو ثوان في ظل شجرة برية أو الضياع في طريق ضيق تحيط بها الأشجار تمرح فيه مع أحلامها وأمانيها.

نزلت فائقة من السيارة وتركتني وحيداً مع الحاجيات التي أحضرتها معي وأخذت تتلفت حولها مبهورة الأنفاس محتقنة الوجه يطل من عينيها بريق عجيب، وعندما أنهيت مهمتي تفقدتها فلم أجدها فأخذت أتأمل ما حولي وإن كنت مهتماً بالبحث عن مكان مناسب للسيارة، قبل أن أغلق الباب قرعت سمعي الأنّة المكتومة ولما سارعت وجدتها ممددة وشعرت بمقدمي فرسمت ابتسامة على وجهها، لكن الألم عاودها فأخذت تئن، وحملتها بين يدي واتجهت مسرعاً إلى السيارة وقبل أن أضعها في المقعد همست:

ـ إني أموت سامحني.

والتفت لوالدها العجوز وأخذت أتأمله دامع العين، لا أدري هل أعزيه أم أطلب منه تعزيتي وقبل أن أترك يده قال:

ـ لقد كنت خير صديق، كنا نعرف أنها سوف تموت.

ـ تعرفون؟

ـ نعم نعرف، إنها مريضة وأيامها معدودة، ولديها حساسية من الأشياء الخضراء.

ـ لقد طلبت مني.

ـ أنا أعرف يا بني لقد سمعتها والدتها، فطلبت مني الاتصال بك حتى لا تنفذ رغبتها ولكنه القدر.

ـ ولكن ..

ـ أعرف أنك لا تعرف عن مرضها شيئاً.

ـ أجل يا سيدي .. أجل يا سيدي.

وارتعت لهذا واستبد بي جزع، ولكن رغم ما انتابني سَاعَتَئِذ من مخاوف وهواجس نِمت ليلتي كأعمق ما يكون وعندما صحوت تذكرت كل شيء، فأخذت أطوي حاجياتي

وطرأت عشرات الأسئلة والافتراضات، وأنا في طريق عودتي إلى الطائف، لكن كل شيء تلاشى وقبل أن أقرع باب مسكن والدتي، أخرجت من جيبي حافظتي وأخذت أتأمل صورة فائقة ثم مزقتها ونثرتها فوق الرصيف.

أوراق من يوميات امرأة عاملة

من بين الأشياء الرائعة التي أُحسد عليها، الحظ الذي خدمني في كل عمل أقدم عليه حتى لو أدى ذلك إلى تصدع الجدران على من حولي.

إنما هذه المرة خدمني بشكل آخر. قدم لي تضحياته الكبيرة ولكن لأفقد عقلي. فأخذت أشك فيمن حولي. وأنهار لأقل صوت مزعج أو صراخ يصلني عبر نوافذ المسكن الذي سكنته مؤخراً أو خلال الفتحات الصغيرة الموجودة في الأبواب متوهمة أن كل من حولي يتمنى موتي. حتى الخادمة التي أصبحت ملكي بدون عناء أخذت أخاف منها. أخشى أن أبقى معها وحيدة فتقوم بقتلي وأنا متمددة في فراشي من الإرهاق عندما تغفو عيني لحظات.

***

تسرب هذا الوهم القاتل إلى أعماقي مؤخراً بعد أن وجدت في عيون من حولي الشك في تصرفاتي كامرأة مثقفة ومتعلمة. تستطيع من خلال ما تلقنته من المدرسة أو الجامعة أن تفرق بين العمل الطيب والعمل السيئ المكروه الذي يفقد الإنسان كرامته.

***

أنا امرأة مهجورة. هجرها زوجها فجأة دون سبب يذكر وبحث عن أخرى لإشباع غرائزه. لا أدري ما هي الأشياء التي افتقدها وجعلته يتزوج بأخرى. رغم الألفة التي بيننا والتفاهم الكبير حيث كنت أتمسح به كجارية عاشقة لأتفه الأسباب حتى يصفح عني وها هو يهجرني.

ـ إنني أبحث عن السعادة.

ـ وهل كانت السعادة مفقودة في حياتنا؟

ـ لم تكن مفقودة. إنما لاحظت أن طباعنا متنافرة.

ـ متنافرة؟

ـ الأشياء التي أحبها، تكرهينها.

ـ الأشياء السيئة.

ـ ولماذا. لا نتهادن حتى نصل إلى منحى السعادة.

ـ وكيف يكون التهادن؟

ـ تتنازلين عن كبريائك قليلاً.

ـ أنا؟

ـ أجل أنت؛ السعادة التي اغترفنا منها الكثير. في أيامنا الأولى.

ـ لقد كنت غرة.

ـ وأنا كنت مغروراً بك.

لم نكن نصل إلى نتيجة في كل حوار يدور بيننا. إذ إننا نتشابك بالأيدي وإذا كان صافي الذهن ولديه موعد مع أصدقائه يرمقني بنظرة ثاقبة ثم ينسحب ويرتدي ملابس الخروج ولا يعود إلا في الساعات الأولى من صباح اليوم

التالي.

لن أتوقف عند الأشياء الصغيرة والبديهية في حياتي. منذ أن قدمت إلى هذا العالم. حيث الفرح الغامر الذي انتاب والدي فقد كان مقدمي بعد خمسة أعوام من الجدب والبحث عن مكان يوجد فيه علاج من أجل الحصول على طفل.

أطل ـ عبد الرحمن ـ وأنا في نهاية المرحلة الثانوية من أسرة غنية تعرف فجأة على والدي من خلال العمل. ارتاح له والدي كثيراً في بادئ الأمر. وأخذ يتحدث عنه كثيراً.

إنما عندما قلت ـ نعم ـ اعترض كثيراً وخاصمني وأمام دموعي أصدرت والدتي أمرها بالموافقة. واستسلم على مضض لم أكن أعرف سر الرفض المفاجئ.

❊❊❊

مع مرور الأيام اكتشفت الحقيقة التي كانت غائبة عن ذهني حينها، وأوقعت والدي في حرج إذ إنه كان ـ عبد الرحمن ـ يشارك والدي وبعض الأصدقاء سهراتهم التي لا تخلو من المحرمات في نهاية كل أسبوع خارج المدينة. أو في دار أحدهم. ولم نلاحظ ذلك على والدي الذي كان يأوي إلى غرفته وحيداً في الهزيع الأخير من الليل ومن هذا المنطلق كان خوفه علي الذي حطمته بحبي الأعمى وعدم التروي في الاختيار الصحيح.

***

القصة كبيرة، والحظ الذي كان يتهادى أمامي جذلاً يقدم لي على طبق من الذهب كل ما أشتهي اختفى الآن بعد مرور أربع سنوات. جاوزت فيها المستحيل. تغلبت فيها على طموحي وواصلت دراستي حتى غدوت موظفة. وتغلبت على وساوس زوجي الذي يأتي بعد منتصف الليل فاقداً

الشعور. يطالبني بالعشاء وإكمال السهر معه حتى الصباح. دون احترام.

ولكن الحظ، ذلك الإنسان الوهمي تقدم لي هذه المرة في صورة صديق لزوجي. أخذ يواسيني في المحنة التي أنا فيها عبر الهاتف ويخفف من آلامي.

شعرت بقربه مني والتصاقه بي رغم عدم إفصاحه عن اسمه ولكن تأكد لي أنه قريب ينتمي لإحدى أسرتينا؛ لمعرفته بكل الخفايا الأسرية وحتى الصغيرة منها رغم ادعائه بأنه صديق زوجي.

حكاية أسطورة

اشتهرت الطائف بالطفولة الدائمة. من خلال الانتماء إلى نجد لارتفاع موقعها وسكناها على قمة جبل غزوان، وتمددها نحو الشرق والشمال وأسطورة نشوء ولاشتهارها بهذا التميز كانت كرومها وبساتينها ذات مذاق خاص تجاوز حدود المكان.

جاءت الأيام مبشرة بعامر الطائفي. امتدادا لشخصية أسطورية تدعى جابر رافقها الجميع وهي تجتاز الطريق من الطائف إلى مكة المكرمة عبر قرن المنازل راجلة ومع ذلك تصل قبل الراكبة.

عثر عليها ذات شتاء جثة هامدة في خندق حفرته إدارة الهاتف على امتداد طريق المطار لكي توصل خدماتها الجديدة إلى ضاحية الحوية.

عامر شخصية لطيفة دائم التحدث عن امرأة يعرفها. دخلت ذات مرة إدارة حكومية لتقابل الرجال ولم تخرج، وآخرين لا يحتفلون به لأنه صاحب حق ويستخفون بوجوده.

كانت هند ذات جمال باهر تملك دارا صغيرة ومزرعة تضم زريبة غنم وكن دجاج. سلبها إياها أحد موظفي البلدية يمت لها بالقرابة حيث باع المكان وطردها مع غنمها إلى الجبال.

ذات صباح التقت هند عامرا يحادث نفسه كما هي عادته أثناء اتجاهه راجلا إلى مقر عمله. لم تدخل وراءه توقفت عند سور البناء مترقبة، وقع عامر في دفتر الدوام وخرج من المبنى وجلس على مقعد في فناء الدائرة أشعل سيجارته وتلذذ بالمذاق ثم ارتفع صوته مخاصما، هزت هند رأسها وواصلت طريقها.

أصبح عامر هاجسها فتسللت ذات ليلة إلى داره لم يتفوه بكلمة. وهي تقوم بإعادة ترتيب الأثاث وإزالة الغبار، صعدت إلى الدور الأول كانت هناك غرفة مطبخ مؤثث

وغرفة نوم بها دولاب ملابس وسرير مفروش بغطاء أبيض، كل شيء جديد ومنظم، كما أن المكان نظيف بخلاف الدور الأرضي.

ـ لمن هذه الغرفة؟

كان السؤال منها لم يهتم بالإجابة بدأ يحادث نفسه. ويتهم شخصا مرائيا بسرقة فلوسه

صرخت فيه

ـ لمن هذه الغرفة؟

وهو يحدق فيها

ـ غرفتك

أخذت تضحك قام من مكانه وانحنى أمام صندوق من الخشب. أخرج من الصندوق المقفل أوراقا نثرها على الأرض.

ـ هذه سندات الأثاث وهذا عقد الزواج

أخذت تقلب الأوراق تحاول معرفة ما فيها. جمعت الأوراق وخرجت وفي الصباح كانت تنتظر كاتب العرائض أمام باب

المحكمة اعتادت الجلوس أمامه ليكتب شكواها التي لم يهتم بها أحد.

قرأ العجوز الأوراق كل سطر يخصها كما قال عامر. لم تدخل المحكمة على غير عادتها منذ عشرين عاما، قامت بشراء علف وكيس خبز جاف لتحملها عربة أجرة إلى غرفتها وشبك الغنم أنجزت الجزء الهام من يومها ثم عادت أدراجها.

عامر في مكانه حيث غادرته ليل البارحة. مدت يدها نحوه وما أن لامست أناملها وجهه حتى تداعى متهشما مثل زير من الفخار، خرجت راكضة وقد تغير مظهرها أبيض شعر رأسها وتقلص جسمها واختفى صوتها.

رواية آخري:

عامر وهند بعد أن التقيا غادرا الطائف. وشاهدهما أكثر من شخص في صحن الكعبة بالحرم المكي.

ويقال: إن الدار التي اختفى الاثنان بداخلها في الطائف صيفا تضاء نوافذها ويخرج من بوابتها ثلاثة أطفال ولدين وبنت يلعبون في الشارع عصرا، ويشترون الحلوى من دكاكين الشارع ويختفون مع ارتفاع أذان المغرب.

ظاهرة:

في طريق الطائف مكة وفي قرية السيل الصغير صخرة شكلها يحمل سمات وجه عامر وملامح هند في إهاب غزال.

كشاف كتب نادي الرياض الأدبي
2019 / 2018

1 أكاد أراني /شقراء مدخلي

2 وابيضت عينا من الحزن/جلال العلي

3 إحداهن / محمد علوان

4 العقد/ حسين علي حسين

5 الغمرات/ عبدالله سليم الرشيد

6 المفارقة في الرواية السعودية المعاصرة/د.منصور البلوي

7 ذاكرة الشفاه/ مفلح الشمري

8 يعرب/ محمد الياسين

9 رسائل لن تصل/طارق أبو عبيد

10 يوريميا/ عبدالله الوصالي

11 رئتان لاتكفيان/علام الثوباني

12 ماروته كامليا/ماجد سليمان

13 أنشودة التيه/ مبارك الهاجري

14 قصة حب/عبدالواحد اليحيائي

15 على قيد غيابك/نورة الضوي